الألف كتاب
الثانى
٢٤٤

مختارات من الشعر الإسبانى

العصور الوسطى

الجـــزء الأول

ترجمة: د. على عبد الرءوف البمبى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مختارات من

الشعر الإسباني

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

لمياء محرم

مختارات من

الشعر الأسباني

الجزء الأول

العصور الوسطى

ترجمة

د. علي عبد الرءوف البمبي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة

عزيزى القــارىء ••

من الغريب ألا يأخذ الأدب الأسبانى مكانته اللائقة على خارطة الثقافة العربية ، بالرغم من أنه أقرب الآداب الغربية الى ثقافتنا روحا ومضمونا ، بل انه الأدب الغربى الوحيــد الذى نشأ وترعرع فى حضن الحضارة الاسلامية عندما كانت الأندلس (الفردوس المفقود) منارة للعلم والمعرفة وســط دياجير العصور الوسطى ••

والأسباب التى أدت الى تهميش أدب يقف فى مقــدمة الآداب العالمية كثيرة ــ ولا يتسع المجال للخوض فيها هنا ــ لكن المحزن حقا هو تشويه هذا الأدب بترجمة نتف منه عن طريق لغات أخرى وسيطة دون الألتفات الى خصوصياته ، أو الحديث عنه اعتمادا على معلومة وردت هنا أو هناك •

وها هو ــ بحمد الله وتوفيقه ــ الجزء الأول الذى يضم مختارات شعرية تمثل كافة الاتجاهات خلال العصور الوسطى الأسبانية • وقد آثرنا تقديمها فى اطار يساعد عــلى القاء مزيد من الضوء عليها حتى لا تكون كالجزر المنعزلة خاصــة وأن العصور الوسطى لا زالت تتشح بالغموض ولا تستهوى الدارسين، لأن اللغة الأسبانية كانت وقتها فى مراحلها الأولى والنفاذ الى جوهر النصوص المكتوبة بها يتطلب المــزيد من

الجهد والمثابرة ·· ومن جهة أخرى ، فانه نظرا لصلة هـذا الشعر الوثيقة بالحضارة الأندلسـية العربية ، فقـد دعت الضرورة الى الاكثار من النماذج الشعرية التى تبرهن عـلى هذه الصلة وتوضحها ···

وفى نهاية هـذه الكلمات نأمل أن يحقق هـذا العمـل الفائدة المرجوة ، والله الموفق ···



الاطار التاريخي ـ الثقافي للعصر الأوربي الوسيط

من المسلمات البدهية أن التعرف الجيد على أدب ما ـ بأجناسه المختلفة ـ في عصر من العصور يقتضى الاقتراب أولا من الاطار التاريخي ـ الثقافي الذى تشكل فيه • ويتحول هذا الاقتراب الى ضرورة اذا كان تفسير هذا الأدب يرتبط ارتباطا وثيقا بالظروف والملابسات المحيطة به كما هو الحال فى أدب القرون الوسطى الأوربية •• ومن ثم نلتمس العذر فى هذه السياحة الاجبارية والقصيرة فى أجواء هذا الأدب الذى أثار العديد من الأحكام المتناقضة •

من المعروف أن العصر الوسيط أو القرون الوسطى الأوربية تشتمل على ستة قرون :

من بداية القرن العاشر الميلادى وحتى نهاية الخامس عشر • وقد اعتاد المؤرخون والنقاد التمييز بين قسمين كبيرين فيه : القرون الوسطى المتقدمة (من أول العاشر حتى نهاية الثانى عشر) ، والقرون الوسطى المتأخرة (من بداية الثالث عشر الى آخر الخامس عشر) •

والحكم على العصر الوسيط قد اعتمد بصفة عامة على وجهات نظر متباينة :

فعصر النهضة الأوربى نظر اليه بارتياب واعتبره فترة توقف وشلل ثقافى تام ، انطلاقا من أيديولوجيته القائمة

على أساس الازدراء الكامل لكل ما لا يمت بصلة مباشرة للتراث الاغريقي ـ اللاتيني • وظلت هذه النظرة سارية المفعول حتى مجيء الرومانسية التي بالغت في الاحتفاء به • فالرومانسيون تعاملوا مع القرون الوسطى من وجهة النظر القصصية البحتة ، على اعتبار أنها عصور زاخرة بالبطولات الفذة والمغامرات الشاعرية والمواقف المثالية •

وفي مقابل هذه المغالاة من كلا الطرفين (عصر النهضة والرومانسية) عالج العصر الحديث القضية بكثير من الموضوعية ، التي تتخذ من الواقع أساسا للانطلاق واصدار الأحكام • وبفضل هذه النظرة الموضوعية فاننا لم نعد نعتبر القرون الوسطى فترة توقف وشلل في حياة الثقافة الأوربية ، كما لا نعتبرها عصرا آسطوريا مضمخا بعبق الخيال والمثاليات ، بل فترة تاريخية ذات سمات خاصة وقيم روحية متوقدة •

الطبقات الاجتماعية وثقافة العصر الوسيط :

للبناء أو الهيكل الطبقي للعصر الوسيط أثر فعال في تحديد هويته الثقافية • وللتدليل على هذا يكفي أن نلقي نظرة سريعة على الطبقات التي كان يتألف منها مجتمع العصر الوسيط :

الكنيسة :

لم تقتصر مهمة الكنيسة في ذلك العصر على نشر القيم الدينية أو العمل على ترسيخها أو الدفاع عنها ، بل انها أخذت على عاتقها أيضا مهمة الحفاظ على التراث أو الارث الثقافي • ومن هنا فقد اختلط لفترة طويلة مفهوم الاكليروس بمفهوم الثقافة ، بحيث ان كلمة قسيس كانت تعني ـ في ذلك العصر ـ رجل الدين والمثقف دون تمييز بينهما •

في بداية العصر الوسيط كان عمل الكنيسة يقتصر على ضمان استمرارية الثقافة السابقة من خلال العكوف على

نسخ المخطوطات القديمة ، لكن بعد أن تغير شكل الحياة الاجتماعية بظهور المدن والتجمعات الحضرية الجديدة ، طورت الكنيسة أسلوبها لمواكبة التحول الثقافي من خلال الجامعات التي أنشأتها واحتضنتها ٠

ويستشف من التعاليم اللاهوتية السائدة في ذلك العصر (وخاصة في القرن الثالث عشر) أن انسان العصر الوسيط كان ينظر ـ مسترشدا بفكرة مركزية الوجود ـ الى الكون على أنه كل متجانس تحكمه العناية الالهية وخاضع لنسق ثابت لا يمكن العبث به أو التمرد عليه ٠ ومن هذا المنطلق سيطر على انسان العصر الوسيط الاحساس بضرورة احترام النظم الاجتماعية والسياسية والدينية القائمة باعتبار أنها من تدبير الخالق وصنعه ، وبالتالى فليس من حق أحد مهما بلغ شأنه التطاول عليها أو التشكيك فيها ٠٠ وتمخض عن هذا الاعتقاد التسليم بأن الطبقة الشعبية قد خلقت للعمل ، بينما جاءت طبقة النبلاء والأشراف لتكون أنموذجا يحتذى في القيم والفضائل على حين تضطلع طبقة الاكليروس بمهمة الحفاظ على الدين المسيحى ونشره ٠

ولقد ساهمت فكرة الانقياد الأعمى للقواعد التى أقرتها ـ أو ظن أنها هكذا ـ السلطة المطلقة للوجود (الله) ، بالاضافة الى احترام النسق الاجتماعى القائم وذيوع استخدام اللاتينية كلغة موحدة للكتابة ووحدة العقيدة المسيحية ، في التشابه الكبير بين الأشكال الحضارية لغالبية شعوب أوربا القرون الوسطى (وهو ما يسمى بعالمية الثقافة) ٠

وأصدق دليل على تجانس ثقافة العصر الوسيط ظهور بعض الأشكال والقيم
أوربا في وقت واحد [illegible]
العمارة القوطية ، الموسيقى المتعدد[illegible]
الخاصة بمريم العذراء ٠٠٠ الخ

الكنيسة الحاسم يتضح أكثر فى مجال الشعور الدينى • بفضل تأصل هذا الشعور نجد أن القسط الأعظم من الانتاج الأدبى المثقف (وتعبير المثقف نضعه فى مقابل الأدب الشعبى للتمييز بينهما) يحتفى بعالم الروح ويحقر الحياة المادية ، ولا يمل من التأكيد على فناء كل ما هو بشرى وعلى عبث الأيام بكل ما على الأرض من ثروات وجاه وسلطان • كما كان هذا الشعور الدعامة الأساسية للمهام الأوربية الكبرى مثل الحروب الصليبية وحرب استرداد أسبانيا من أيدى المسلمين •

طبقة النبلاء :

اضطلعت طبقة النبلاء ــ الى جانب الكنيسة ــ بمهمة قيادة المجتمع فى العصر الوسيط • وبالرغم من أنها كانت تستقى من الكنيسة الأفكار والضوابط الحياتية وتستمد منها قوة الدفع الا أنها قامت بدورها فى خلق أشكال حضارية انعكس آثرها على الأدب •

ولقد كانت طبقة النبلاء فى القسم الأول من العصر الوسيط عبارة عن طبقة اقطاعية غير متحضرة ومتقوقعة على مصالحها الخاصة ، ذات ميول عدوانية ، تكاد تنحصر بطولاتها ومآثرها الحربية فى الدفاع عن نفوذها وممتلكاتها والعمل على زيادتها باستمرار •

وبمرور الزمن ، ونتيجة للتعايش الاجتماعى ، خلعت هذه النبالة لباس التقوقع البربرى وتحولت الى نبالة تتمتع بكل مفاهيم ومواصفات الفروسية • فعلى خلاف مفهوم البطل فى القرون الوسطى الأولى أصبح الفارس يتصرف وفقا لقانون الفروسية العام وطبقا لضوابط أخلاقية ــ دينية جعلته يتحول لمحاربة أعداء الدين وحماية الضعفاء ، كما جعلته يتبارى فى الالتزام بالفضائل ومكارم الأخلاق •

كما أضيف الى هـذه الاهتمامات عنصر آخر دنيـوى (غـير دينى) ويتمثل فى الوفاء بعهـد الحبيبـة والتغنى بشمائلها ·

وفى نهاية العصر الوسيط ـ وخاصة فى القرن الخامس عشر ـ فقد مفهوم الفروسـية كثيرا من فعـاليته وتبعاته الأخلاقية لينحصر فى مجرد رشاقة اللعب بالسيف والاستعراض فى مسابقات المبارزة · وقد حدث هذا بعد أن اتجهت هذه الطبقة للالتفاف حـول العروش الملكيـة والعيش فى كنف الملوك الذين سطع نجمهم وقويت شوكتهم واتسـع نفـوذهم وأصبحوا رمزا للسلطة المدعومة بالمبررات الدينية ·

وهـكذا نزعت هـذه الطبقـة الى الأرستقراطية التى تتمرغ فى أحضان الترف والدعة ولم يبق لها من مفهـوم الفروسية القديم سوى المظهر الخارجى ·

وبالاضافة الى ما تقدم ، فان فكرة الحرب من أجل هدف جماعى آخذت تتقلص تحت تأثير النزعة الفردية التى جعلت محور التصرف والسلوك يكاد ينحصر فى المغامرات العاطفية وفى تحقيق المجد الذاتى ·· وبهذا الشكل تحولت الحيـاة المتجهمة المليئة بالحروب الشرسة والخصـومات الحادة والتى ميزت هـذه الطبقة فى بداية العصر الوسـيط الى مجـرد مبارزات استعراضية وانغماس فى اللهـو واللعب والترف واهتمام بالشعر والحب فى نهاية ذلك العصر ·

الشـعب :

فى بداية العصر الوسيط كانت الطبقة الشعبية تعيش فقيرة محرومة حول القلاع والحصون والأديرة ، ولم يكن لها من عمـل سـوى الزراعة ولا تتمتع بأية ثقـافة مميزة · ورويدا رويدا ـ بعد أن أصبح من الممكن العمل بالتجارة أو الصناعة ـ أخذ أفراد هـذه الطبقة يتجمعـون فى مراكز

حضرية (مدن) ليشكلوا نواة لطبقة جديدة عرفت باسم « البرجوازية » .

وافراد الطبقة البرجوازية لم يتحمسوا لمثاليات الفروسية ولا لحياة الزهد والورع التي تدعو اليها الكنيسة. فقد كانوا يسخرون من الرومانسية المتقدة لطبقة النبلاء والفرسان ومن اعراض رجال الدين عن الحياة ومتعها ، ويؤمنون على عكس هذا بالمبدأ النفعي في الحياة والذى لا يعتبر الدهاء أو المكر نقيصة بل سلاحا مشروعا وضروريا من آجل البقاء والعيش . ومن ثم نجد أن ردود أفعالهم تتسم دائما بالتهكم المرير والسخرية اللاذعة من كل ما لا يوافق هواهم من تصرفات أو سلوكيات . وبالطبع ، فان السخرية والتهكم قد انعكسا على أدبهم وأصبحا أحد سماته الجوهرية .

الاتجاهات الفنية ــ الأدبية :

يمكن القول بصفة عامة ان المنحى التعليمي أو التهذيبي ــ التربوى كان هو المسيطر على جل الانتاج الفنى والأدبي للعصر الوسيط . ومن هذا المنطلق فان المؤلف يعطي للمحتوى الأيديولوجي ــ الأخلاقى للعمل الفنى أو الأدبى أهمية تفوق بكثير وسيلة التعبير التى ينظر اليها كمجرد أداة تساعد على قبول وفهم الحقائق التى تشتمل عليها .. ومن ثم فليس بغريب أن يعرف شاعر مثل الماركيز دى سانتيانا الشعر بأنه : « عرض أشياء نافعة ، مستورة أو مغطاة بغلاف فائق الجمال » ، أو أن ينصح عدد كبير من الشعراء قراءهم بأن يجتهدوا فى التنقيب عن المعانى الخبيئة فى بطون أعمالهم وألا ينشغلوا بظاهرها مهما بلغ من جمال . وفى هذا يقول الشاعر « خوان دى مينا » : « علينا بالنظر الى النخاع لا الاهتمام باللفظ » ، أى الى المضمون والمعنى دون الشكل اللغوى .

وهذا يفسر لنا ـ من جهة ـ السر فى اسراف أدباء هذا العصر فى استخدام المجاز والرمز والاستعارة • فالشاعر جونثالو دى بيرثيو (شاعر دينى) عندما يصف فى احدى قصائده الطويلة مرجا اخضر وديعا يبعث البهجة والطمأنينة فى النفوس فانه لم يكن يقصد الوصف فى حد ذاته بل ما يمكن أن يشتمل عليه من تأثير فى نفوس السامعين او القراء حتى يتمكن من طبع الحقيقة الدينية فى أذهانهم وأفئدتهم •

وهذا المفهوم النفعى للشعر قد حمل الشعراء على الاهتمام فقط بفعالية المغزى التهذيبى أو التربوى ، دون الالتفات كثيرا الى طرافة الاشكال التعبيرية أو حتى الانشغال باثراء المضامين الأخلاقية التى أصبحت مكررة ومعادة (وتتمثل فى تحقير الحياة المادية ، فناء وزوال العالم الحسى ، بؤس وشقاء الانسان •• الخ) • غير أن الشعر البروفانسى (نسبة الى بروفانس وكانت مقاطعة فى جنوب فرنسا) قد أضاف ـ منذ نهاية القرن الثانى عشر ـ بعدا آخر للأدب عندما زاوج بين المقصد الجمالى والهدف التربوى التعليمى •

وبوجه عام ، يمكن القول ان العصر الوسيط تجتمع فيه عناصر فنية متعددة تتعاون جميعها فى أحداث صدمة عاطفية مكثفة ، بدلا من البحث عن الغايات الجمالية ، وأن تعبيراته المضطربة بديناميكية جزعة تقف على طرفى نقيض من سلاسة الاتقان فى الآداب الكلاسيكية •

الطبقات الاجتماعية والأجناس الأدبية :

ترتبط الأجناس الأدبية فى العصر الوسيط ارتباطا وثيقا بالطبقات الاجتماعية بحيث يمكن تصنيفها على أساس هيكل المجتمع :

فوجود طبقة النبلاء الحربية قد أفسح المجال فى القسم الأول من العصر الوسيط لظهور شعر ملحمي شفوى (غير مكتوب) باللغة العامية (اللاتينية المحلية) ، يتناسب شكله البدائى مع طبيعة الشعوب غير المتحضرة • فقد كان الجمهور المتلقى لمثل هذه القصائد الملحمية التى يغلب عليها الطابع المحلى يتألف من النبلاء (محدودى الثقافة فى ذلك الوقت) ومن عامة الشعب •

أما الاكليروس فقد كان يقدم أدبا ذا صبغة دينية أو أخلاقية أو علمية • وكل هذه الأجناس كانت تكتب باللاتينية القديمة أو الفصحى حتى القرن الثالث عشر ، الذى بدأت تحل فيه اللهجات المحلية اللاتينية العامية محل الفصحى • ومنذ هذا القرن (الثالث عشر) بدأت العناصر والمفاهيم العلمانية تأخذ مكانها فى الأدب الأخلاقى التربوى ، حيث لم تعد الثقافة دينية بحتة ، بمعنى أنها لم تعد ارثا خاصا بالكنيسة أو حكرا عليها •

وعندما ظهرت المدن وتكونت الطبقة البرجوازية احتاجت هذه الطبقة لأشكال فنية ملائمة لنظرتها للعالم المحيط بها وردود أفعالها تجاهه • وسرعان ما وجدت هذه الطبقة — المرتبطة بالأشياء الواقعية المألوفة — بغيتها فى فن الأقصوصة وفى الشعر التهكمى الساخر • ففى مقابل حفاوة أدب طبقة النبلاء الخشنة والطبقة الشعبية بشخصية البطل المحارب ، وتمجيد الأدب الدينى لشخصية القديس ، نجد أن الأدب البرجوازى يهتم بأنموذج الرجل النفعى اليقظ الذى يعتمد على فطنته وخبثه فى خوض أزمات الحياة اليومية والتغلب عليها •

وقد أدى نزوع طبقة النبلاء الحربية الى الأرستقراطية والحياة المرفهة التى لا هم لها سوى الحب والمغامرة (فى القرون المتأخرة للعصر الوسيط) ، أدى الى كتابة عدد كبير من القصص التى تتحدث عن المآثر الخيالية لأبطال وهميين

يقاسون الأهوال فى سبيل نصرة الحق أو للفوز برضا المحبوب ، والى ازدهار الشعر الغنائى الغزلى ذى الطابع والأشكال التعبيرية الرقيقة ٠

ولا يعنى ما تقدم ان الاجناس الادبية المختلفة كانت منفصلة عن بعضها بحواجز لا يمكن تجاوزها ، بل انها كانت تختلط ببعضها ، بحيث اننا قلما نجد أدبا دينيا لا تتخلله عناصر ملحمية أو أدبا برجوازيا لا يحتوى على موضوعات دينية أو أرستقراطية مثالية ٠

والى جوار الأشكال الأدبية السابقة لابد وان نشير الى ظاهرة يتميز بها العصر الوسيط وتتمثل في الأدب الشعبى ٠ ونعنى به الادب الذى يؤلفه شخص ما من أية طبقة اجتماعية ويظل الناس يتناقلونه فيما بينهم شفاهة بحيث يضيفون اليه أو ينقصون منه حسب أذواقهم الى آن يصل الأمر فى النهاية الى نسيان المؤلف الأصلى ٠

الملامح الرئيسية للأدب الاسبانى فى العصر الوسيط :

ما آسنفنا القول فيه ينطبق بوجه عام على كل أوربا الغربية فى العصر الوسيط بما فيها مملكة قشتاله Castilla (موطن اللغة الأسبانيه) ، غير أن قشتالة تختص ببعض الملامح التى تضفى على أدبها سمتا خاصا ٠

اذا نظرنا الى الهيكل الاجتماعي لقشتالة (ولا نقول آسبانيا فى شكلها الحالى لأن شبه جزيرة أيبيريا كانت مقسمة خلال القرون الأولى للعصر الوسيط الى عدة ممالك مسيحية بالاضافة الى بقايا التواجد العربى فى جنوبها) وجدناه مطابقا لما كانت عليه المجتمعات الأوربية الأخرى : فالكنيسة تضطلع بمهمة الحفاظ على الدين وعلى الارث الثقافى ، وطبقة النبلاء الحربية التى كانت مشغولة فى البداية بصراعاتها المسلحة تحولت أخيرا الى الحياة

الأرستقراطية الناعمة ، تم تأتى الطبقة الشعبية التى تمسك النبالة بزمام شئونها السياسية بينما تقوم الكنيسة بتوجيهها روحيا وعقائديا ٠

واذا كانت الكنيسة في قشتالة تقوم بنفس الدور الذى تؤديه في جميع أنحاء العالم المسيحى ، فان طبقة النبلاء فيها لم تكن ضالعة فى الاقطاع مثل بقية الممالك الاوربية وذلك نتيجة للحس الديمقراطى السائد فى قشتالة والذى يخالف تماما مفهوم ثبات التدرج الطبقى والذائع وقتها فى جميع أنحاء أوربا ٠

أما الطبقة الشعبية فما يميزها فى قشتالة يكمن فى غياب البرجوازية صاحبة الامكانات الاقتصادية والمفاهيم النفعية ٠ وهكذا أصبحت مملكة قشتالة ــ وخاصة بعد طرد العرب واليهود الذين كانوا يحتكرون الأنشطة التجارية والمهنية فيها ــ تتألف من نسيج اجتماعى متجانس ومتماسك ينخرط في أداء مهمة أساسية : فلاحة الأرض وخوض الحرب لانتزاع ما بقى فى أيدى المسلمين من أرض على شبه جزيرة أيبيريا ٠ أما التطور التاريخى فى قشتالة فهو يسير على نفس النهج الذى سار عليه المجتمع الأوربى : من حياة الريف الى حياة الحضر ، من القلاع والحصون المنفردة المتباعدة الى الملكية القوية المهيمنة ذات الأبعاد الدينية ، من الأديرة المنعزلة الى الصخب الجامعى ، ومن البدائية والخشونة الى مثاليات الفروسية ٠

ومع أن التطور التاريخى كان واحدا الا أن ايقاعه فى قشتالة كان أبطأ مما كان عليه فى بقية المجتمع الأوربى ، ويرجع البعض هذا الى التواجد العربى على أرض أسبانيا ، والذى أجبر القشتاليين على اتخاذ الموقف الدفاعى ضد كل التيارات الوافدة من الخارج والتشبث بالتراث والأشكال الحياتية الخاصة ، اعتقادا منهم أن ذلك سيجنبهم الذوبان فى الحضارة العربية وسيمكنهم ، بالتالى ، من مقاومتها

والتصدى لها - لكن بعد زوال الخطر العربي استعادت قشتالة ثقتها بنفسها وفتحت أبوابها للتيارات الاسلامية ، التى كان لها الفضل ــ بالتعاون مع تأثيرات اوربيــة أخــرى ــ فى اضفاء روح خاصة على الثقافة الأسبانيــة خــلال القــرنين الرابع عشر والخامس عشر • وهذه الروح تكمن فى سيطرة الذوق الشعبى وسيادة ادب الأغلبية الذى يفضــل التعبيرات العفوية المعتــدلة الخاليــه من الصنعة والتصنع ، وكذلك الأوزان العروضية البسيطة والميل الى الواقعية المكثفة التى لا تقتصر على دقة تصوير الاشــكال الحســية بل تتعداها الى السمات الروحية والمعنــوية •• ولا يعنى هــذا أن الفنــان الأسبانى كان يقف عند حد التصوير المادى الخالص للأشياء . بل ان الواقع يظهر كثيرا من خــلال الابداع الأدبى محاطا بهالة من الشاعرية الحالمة •

والى جانب الخصائص السابقة يمكن أن نضيف الولع بنوع من الأدب الجماعى ، أو « مجهول المــؤلف » حيث تنصهر شخصية المؤلف وتتحد بالشــعور الشــعبى العام والحس الجماهيرى الذى يميــل ــ وخاصــة فى بداية نشــأة مملكة قشتالة ــ الى القيم الموضوعية الممثلة فى القصائد الملحميــة وسير البطولة ويفضلها على ذاتية الشعر الغنائى •

وبفضل التصــاق الشعب بالعمــل الشــعرى واحترام الشاعر للاشكال والأفكار المفضلة لدى الأغلبية عاشت سلسلة من الموضوعات لقرون عديدة ازدادت خلالها ثراء وعمقا ، نتيجة للاضافات والتعديلات التى لحقت بها •

ومن هنا يمكن القول بأن أهم ملمح للأدب القشتالى فى العصر الوسيط يتمثل فى التمسك بالشكل الشــفوى للأدب والاحتفــاء بالنماذج الوطنيــة سواء أكانت لرجال دين أم لأبطال محاربين • وأصدق مثال على هذا « ملحمة السيد » (منتصف القرن الثانى عشر) التى تناقلت كتب التــاريخ

والقصائد الرومانثية أحداثها الرئيسية خــلال عدة قرون الى أن وصلت الى مسرح القرن السابع عشر ٠

اما بالنسبة لما يتعلق بجمال الصنعة الادبية وأنها لم تكن هدفا فى حد ذاتها بل مجــرد وسيلة معــاونة لتحقيق الأهداف (سواء اكانت سياسية ام دينية آم اخلاقية ٠٠٠) التى كانت تعتبر وقتهــا ــ انطــلاقا من المنحى التعليمى التربوى للعمل الفنى ــ اسمى وارفع ، فان الادب الأسبانى وان كان يشارك فى هذه الخاصية ، الا أنه كان يغالى فيهــا نظرا لطبيعته الأخلاقية الصارمة ٠

والى جانب كثرة الانتاج الأدبى ذى الشــكل الجماعى والمرتبط بالتراث توجد أيضا أعمال أدبية أخرى تتــوخى المقاصد الجمالية ٠ ففى مقابل الشاعر الجوال الذى لا يعتنى كثيرا بأناشيده والتى يقوم الجمهور المتلقى بالزيادة عليها وتحويرها حسب ذوقه نجد « خوان مانويل » الذى يعتنى بأسلوبه ويدافع بحماس عن (بنات أفكاره) وعن آبوته لكل ما يخرج من تحت يده من أعمال ٠

فالأدب الأسبانى فى العصر الوسيط محــكوم ــ كمــا نرى ــ بازدواجية دائمة ، وتعنى بها وجود أدب شعبى ينهل من معين المحلية وتحكمه الواقعية الى جوار أدب مثقف (ان جاز التعبير) يتسم بالعالمية ويحلق فى آفاق المثالية ٠

ومع هذا يجب الاعتراف بأن اليــد الطــولى فى قشتالة كانت للتيار الشعبى الذى اتسعت دائرة الاعجاب به لتضــم كتابا معروفين بنزعاتهم الثقافية الرفيعة ٠

الاتصال بثقافات أخرى :

أشرنا فيما تقدم الى آن الصبغة المحليــة تشــكل الملمح الرئيسى للأدب القشتالى (الأسبانى) وخاصــة فى مجــال الشعر الملحمى والشعر الغنائى الشعبى ٠ ومع هــذا فان

قشتالة لم تكن معزولة تماما عن تيارات العصر الثقافية كما يتضح من التأثيرات المتنوعة التي يشتمل عليها أدبها ٠٠ واعظم هذه التأثيرات على الاطلاق التأثير العربى الاسلامى٠ وهذا التأثير طبيعى بحكم التواجد العربى على أرض اسبانيا لما يقرب من ثمانية قرون ، ولتقدم الحضارة الاسلامية بالمقارنة بما كانت عليه أوربا فى العصر الوسيط ٠ وقد أشرنا آنفا الى أن مملكة قشتالة كانت تتعامل فى البداية ــ عندما كان النفوذ السياسى والعسكرى للمسلمين قويا فى شبه جزيرة أيبيريا ــ بحذر وتوجس مع الحضارة الاسلامية خوفا من ضياع هويتها القومية بالذوبان فى الحضارة الأقوى ، لكن بعد أن ضعفت شوكة العرب وتقلص ملكهم فى أسبانيا وأصبحوا لا يمثلون خطرا حقيقيا على المبادىء الأساسية للحضارة الغربية اندفعت مملكة قشتالة وغيرها من الممالك المسيحية الأخرى للاغتراف من فيض العلوم والمعارف العربية ٠ ففى القرن الثانى عشر الميلادى بدأت مدرسة مترجمى طليطلة عملها فى نقل الكثير من المؤلفات العربية فى الطب والرياضيات والفلك والجغرافيا والفلسفة والقصص والحكايات٠٠الخ الى اللغتين الأسبانية واللاتينية ، وازداد نشاط هذه المدرسة واتسع خلال القرن الثالث عشر٠ ومن هنا يمكن تفسير كثرة ما يشتمل عليه النثر الأسبانى (وخاصة التعليمى ــ القصصى) خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر من تأثيرات عربية ٠

والى جانب التأثيرات العربية توجد أخرى فرنسية ترجع الى القرن الحادى عشر عندما أخذت سملكة قشتالة تنفتح علىأوربا بفضل وفود الحجاجالتى كانت تفد باستمرار من جميع الأنحاء لزيارة « سانتياجو دى كومبوستيلا » ، وأيضا لتدخل فرنسا المباشر فى حرب الاسترداد التى كانت تدور رحاها بين الممالك المسيحية فى أسبانيا وبين العرب ٠ والتأثيرات الفرنسية تظهر بوضوح فى الملحمة والشعر

الغنائى الأرستقراطى (أو المثقف) ، وفى قصص الفروسية بالنسبة للنثر ·

أما التأثيرات الجرمانية التى حملها القوط الى أسبانيا قبل مجيء العرب اليها ، فلم تكن عميقة ويتركز معظمها فى فن الأناشيد الحربية ·

وفى القرن الخامس عشر أخذت تضعف معظم الروابط والصلات بين الأدب الأسبانى والثقافات السابقة ليحل محلها وبقوة التأثير الايطالى المشبع بالعناصر الكلاسيكية ، وخاصة بعد أن أصبحت أعمال دانتى وبوكاشيو وبترارك أمثلة تحتذى فى الدوائر الأدبية الأسبانية ·

وبالرغم من أن الثقافة الكلاسيكية (الاغريقية ـ اللاتينية) لم تكن منسية تماما خلال القرون السابقة لعصر النهضة ـ كما يتضح من كتب التاريخ ومن النثر التعليمى ومن الأدب الدينى الذى كان يستقى مادته من مؤلفين لاتينيين ـ الا أن نظرة العصر الوسيط الى العصور القديمة كانت تشوبها السطحية والفوضى ·

ومن هنا ، فان التيار « الانسانى » الذى ظهر فى أوربا خلال القرن الخامس عشر كان يمثل منعطفا جديدا وهاما فى تاريخ الحضارة الأوربية ، فبفضله بدأ الاهتمام بالقيم الجمالية فى الفن والأدب الكلاسيكيين بعد ان كان البعض يتوجه اليهما فى العصر الوسيط بقصد اظهار تبحره فى المعرفة فقط ·

نشأة اللغة الأسبانية :

يكتسب الحديث عن نشأة اللغة الأسبانية أهمية خاصة عندما نريد التعرف على بداية الشعر الأسبانى والوقوف على تاريخ ولادته · ومن ثم يجب أن نشير ـ ولو فى لمحة قصيرة ـ

الى مراحل نمو هذه اللغة الى آن تم اعتمادها كلغة رسمية فى الكتابة ٠

قبل ان يحتل الرومان شـبه جزيرة أيبيريا فى القـرن الثالث (قبل الميلاد) كانت توجد على أرضـها عـدة لغـات يتحدث بها سكانها الأوائل (ليبيروس ، ليجيريس ، ثلتاس ، تارتيسيوس ٠٠٠ الخ) ، لكن تلك اللغات البدائية توارت بعد الاحتلال الرومانى وحلت محلها اللغة اللاتينيـة التى استخدمت فى جميع مناطق شـبه الجـزيرة فيما عدا اقليم « الباسك » الذى احتفظ بلغته القديمة ٠

واللغة اللاتينية كان لها مسـتويان فى الاسـتخدام : اللاتينية الكلاسيكية (أو الفصحى) وتتحـدث بهـا وتكتب الصفوة المثقفة ، أما اللاتينية العامية (غير المكتوبة) فكانت تتحدث بها الطبقة المتوسطة علاوة على الطبقة الشعبية ٠

واللاتينية فى مسـتواها الثـانى (العامية) هى التى حلت محل اللغات الأهلية وتعلمها الأسبان من أفواه المحاربين الرومان ٠

وبفضـل اسـتخدام اللاتينية العاميـة تمتعت آسبانيا بوحدة لغوية لم يؤثر فيها الغزو القـوطى ، لـكن بعـد آن انفرط عقد الامبراطورية الرومانية الى ممالك متعددة فى القرن الخامس الميـلادى ، ونظرا لانعزال هـذه الممالك عن بعضها ثقافيا آخذت اللاتينية العامية فى التطور التدريجى حتى اكتسبت ملامح خاصة فى كل مملكة ٠

وفى مقابل هذا التطور الاقليمى فى اللاتينية العاميـة ظلت اللاتينية الكلاسيكية (لغة الكتابة) محتفظة بملامحها وشكلها حتى بعد انهيار الامبراطورية الرومانية ٠ وفى العصر القوطى (العصر السابق للفتح الاسلامى) استمرت اللاتينية الكلاسيكية على ما كانت عليه (يتحدث ويكتب بها المثقفون) ، بينما تطورت اللاتينية العاميـة (اللغـة التى يتحدث بها آوساط الناس وعامتهم) بسرعة بعد آن دخلتها

مفردات ومصطلحات قوطية (جرمانية) الى أن وصلت فى القرن السابع الى شكل الرومانث البدائى ٠

وبعد انهيار حكم القوط فى شبه الجزيرة الأيبيرية وظهور الممالك المسيحية تطور الرومانث البدائى (الشكل اللغوى الذى آلت اليه اللاتينية العامية فى القرن السابع) فى كل واحدة منها بشكل مغاير عن الأخريات ٠ وظل التطور يسير فى اتجاهات متعددة حتى تمخض عن ست لهجات (كلها منحدرة عن اللاتينية العامية) فى القرن العاشر الميلادى : الجاليقية ، الليونية ، القشتالية (الأسبانية) ، النابارو ــ أراجونى ، القطلونية والأعجمية الأندلسية ٠ وهذه اللهجات الست كانت تستخدم وقتها فى الحديث فقط ولم تستخدم فى الكتابة ٠

ولم تمض فترة طويلة (منتصف القرن الحادى عشر) حتى سادت اللهجة القشتالية على بقية اللهجات واكتسبت أهمية أكبر منها بفضل طواعيتها وقدرتها الفائقة على التعبير ، وأيضا بفضل النفوذ المتزايد لمملكة قشتالة التى استطاعت أن تدخل لغتها فى البلاد التى استعادتها من المسلمين تباعا ٠

وبالرغم من الانتشار السريع للهجة القشتالية (الأسبانية) فان تاريخ استخدامها فى الكتابة أو التأليف الأدبى يرجع الى منتصف القرن الثانى عشر عندما دونت بها « ملحمة السيد » الشهيرة ٠ وربما تكون قد استخدمت فى الكتابة قبل هذا التاريخ ــ وهذا هو الأرجح ــ لكن عدم العثور على مدونات سابقة على الملحمة المشار اليها يزيد من صعوبة الاجتهاد فى تحديد هذا التاريخ ٠

أما الاعتماد النهائى للاسبانية كلغة للكتابة فلم يتم الا فى القرن الثالث عشر ، خلال حكم الملك فرناندو الثالث الذى « أمر بجعل الأسبانية اللغة الرسمية للكتابة بدلا من

اللاتينية » • وفى هذا القرن (الثالث عشر) تطور النثر الأسبانى تطورا مذهلا بفضل الجهود الجبارة للملك ألفونسو العاشر (الملقب بالعالم) • كما حظى القرن الرابع عشر بأدباء كبار أثروا اللغة الأسبانية بمؤلفاتهم ومنهم :

« كاهن هيتا » ، « دون خوان مانويل » •• ومن بعدها تابعت الأسبانية نموها وتطورها السريع الى أن بلغ الذروة ، مع اكتشاف أسبانيا للعالم الجديد (الأمريكيتين) واحتلالها لمعظمه •• لقد أصبحت الاسبانية بعد اكتشاف الأمريكتين وخلال العصر الذهبى للأدب الأسبانى (القرنين السادس عشر والسابع عشر) من أعظم اللغات ثراء واتساعا ومن أقدرها على التعبير عن الأفكار والأحاسيس والمشاعر وتصوير أدق خلجات النفس البشرية •

الشعر الغنائى الأسبانى :

كما اشرنا من قبل ، فان اللغة القشتالية (الأسبانية) هى اللهجة التى تطورت عن اللاتينية الدارجة فى مملكة قشتالة ، ولم تكن هى اللهجة الوحيدة التى أصبحت لغة مستقلة فى شبه جزيرة أيبيريا (أسبانيا والبرتغال حاليا) بل تطورت مثلها لهجات أخرى وأصبحت لغات مستقلة مثل القطلونية والجاليقية ـ البرتغالية •• الخ • وبما أن الشعر الأسبانى هو موضوع حديثنا فاننا لن نتعرض للآداب الأخرى التى كتبت على ارض اسبانيا خلال العصر الوسيط بلغات اخرى غير الأسبانية • والشعر الأسبانى كان أسبق من النثر (شأنه فى ذلك شأن الآداب العالمية الاخرى) • ويمكن ارجاع هذا الى سهولة انتشار الشعر شفويا دون الحاجة الى تدوينه بخلاف النثر الذى يعتمد انتشاره على الكتابة والتدوين ، واللغة ـ كما هو معروف ـ تستخدم فى الحديث أولا لكن الكتابة بها تتأخر •• ونظرا لتأخر اعتماد الأسبانية كلغة رسمية للكتابة (القرن الثالث عشر) فقد

تأخر ظهور النثر المدون بها حتى القرن المذكور . واذا كنا قد آشرنا الى أن الشعر القشتالى (الأسبانى) هو موضـوع للحديث، فان هذا لا يعنى التعرض لكل الأجناس الأدبية التى كانت تتخذ من الشعر وسيلتها للتعبير ، لأن كلمة الشعر عندما تطلق مجردة يقصد بها الشعر الغنائى دون غيره . فمن المعروف أن الملحمة قد اعتمد تأليفها على الشعر ، كما اعتمد عليه القصص الدينى فترة طويلة ، وكذلك المسرح الأسبانى الذى ظل مسرحا شعريا منذ نشأته (فى نهاية القرن الثانى عشر أو بداية الثالث عشر) وحتى قرون طويلة لاحقة . لكننا سنستثنى من هذا التعميم — وبالنسبة للعصور الوسطى فقط — الملحمة الأسبانية التى وصلت الينا كاملة (ملحمة السيد) ، وكذلك الشعر الدينى نظرا لما يلى : لأن « ملحمة السيد » تعتبر أول عمل أدبى يدون باللغة الأسبانية قبل أن تصبح هذه لغة الكتابة الرسمية . وأيضا لأن الملحمة الأسبانية والشعر الدينى قد اعتمدا فى نشأتهما وذيوعهما على نفس الظاهرة الأدبية التى اعتمد عليها الشعر الغنائى ، ونعنى بها ظاهرة « الشعراء الجوالين » الوثيقة الصلة بالعصر الوسيط . ففى هذا العصر كانت معظم الشعوب الأوربية تعيش تحت نظام مزدوج اللغة لأن عددا قليلا من أفراد المجتمع (المثقفون أو رجال الدين) كان يستخدم اللاتينية الكلاسيكية فى الكتابة والتأليف الأدبى بينما كانت الكثرة تتحدث بلغة مختلفة (الرومانث) وتجهل هذا الأدب الخاص لأنها لا تعرف القراءة .

وعندما جاء الشعراء الجوالون (أو انشقت الأرض عنهم) وراحوا يغنون أشعارهم بلغة الكثرة الغالبة ، التفت هذه الكثرة حولهم وتفاعلت معهم وانصرفت عن رجال الدين الذين يكتبون بلغة لا يفهمونها .. لكن رجال الدين استوعبوا الدرس بسرعة ونزلوا الى الميدان لكى يعظوا العامة ويلهبوا مشاعرهم الدينية باللغة التى يفهمونها .

والشاعر الجوال (El Juglar) هـو رجـل فقـير ـ فى الغالب ـ يتمتع بمواهب فنية وشعرية ويجيد العزف عـلى الآلات الموسيقيه • وهو يعرض مواهبه عـلى الجمـاهير فى الأماكن العامة مثل الميادين والأسواق وساحات القلاع فى مقابل ما يجود به الناس عليه من مال أو طعام أو ثياب•الخ •• انه لون من النسول أكثر مرحا ودخلا •

وبمرور الزمن كثر عدد هؤلاء الشـعراء حتى اصـبح يضم الطالب الفقير ورجل الدين المتشرد والصعلوك الظريف أو السكير خفيف الظل ، وكل من جاء الى الحياة مجردا من الثروة والجاه ويملك نهما فنيا •• وقد كانوا دائمى التنقل والترحال من مكان لآخر بحثا عن المغامرة والمال ، وينفقون حياتهم أحرارا ، ويلبسون ثيابا زاهية مزركشة •

أما الموضوعات التى كانوا يتغنون بها فكانت عبـارة عن الأقاصيص والحكايات الحربية والمواقف البطولية لفرسان شـجعان ـ حقيقيين أو أسطوريين ـ ينتسـبون لزمنهم او لأزمان غابرة ، وكانوا يستعينون بالآلات الموسيقية ويلجأون الى الرقص والتمثيل لامتاع الجمهور •

غـير أن هنـاك نوعا آخـر من الشـعراء يطلق عليهم لفظ « التروبادور » (Trovadores) لتمييزهم عن الشـعراء الجوالين (Juglares) • ولفظ « التروبادور » يطلق عادة على الشاعر الغنائى الذى ينتمى لطبقة اجتماعية أعـلى من طبقة الشاعر الجوال ، ولا يتخذ من مواهبه الفنية وسـيلة للاستجداء والتكسب • والشعر الذى يؤلفه « التروبادور » شعر رقيق ومثقف بخلاف شعر الشاعر الجوال الذى يتسم بالبساطة والعفوية • لكن هـذا لا يمنع أن يغنى الشـاعر الجوال أشعارا ألفها أحد التروبادور •

ويتفق معظم النقاد على أن مقاطعة بروفانس (جنوب فرنسا) كانت المهد الأول للشعر الغنائي ولشعراء التروبادور .

وكبار شعراء التروبادور كانوا يتجولون عبر شبه جزيرة ايبيريا وفي صحبة كل واحد منهم ، بحسب اهميته ، عدد من الشعراء الجوالين لكي يغنوا قصائده التي يقوم بتأليفها ، وكانوا يرتادون بلاط الملوك والأمراء وكبار القواد .

وبالرغم من ان الشعراء الجوالين كانوا ينشدون أيضا الشعر الغنائي الا أن الموضوعات ذات الصبغة الملحمية كانت هي السائدة والاكثر ذيوعا نظرا لطبيعة القشتاليين البدائية التي تعاف الشعر الغنائي ولا تنسجم مع خصوصيته .

وكانت القصيدة التي يغنيها الشاعر الجوال ـ سواء أكانت من تأليفه ام من تأليف غيره ـ تتعرض للتنقيح المستمر وللزيادة والنقصان . وأحيانا كان الشاعر نفسه هو الذي يقوم بالتعديل فيها حتى يجعلها مناسبة لذوق الجمهور المتلقي ، وكلما اختلفت نوعية الجمهور تعددت الأذواق واحتاج الأمر لمزيد من التهذيب والتنقيح .

والجمهور بدوره عند تناقله لتلك القصائد قد ينسى بعضها أو يضيف اليها من عنده .. ولذا يمكن القول بأن أمثال تلك القصائد الملحمية أو الغنائية لم يكن لها مؤلف واحد ولو حتى مجهولا (فلم يكن الشاعر الجوال يشير الى مؤلف القصيدة) بل ان الوجدان والهمهمة الشعبية هي التي صاغتها في الصورة التي نراها عليه الآن .. ومن ثم فانه من المتعذر الاهتداء الى تحديد بداية نشأة الشعر الملحمي والغنائي الأسبانيين . ومع هذا فان العلامة الأسباني « مينندث بيدال » يعتقد أن الملاحم الأسبانية ذات أصول جرمانية .

وعلى أية حال ، فانه بالرغم من وجود بعض قصائد ملحمية قصيرة (حوالى ٥٠٠ بيت من الشعر) تنتسب الى القرن الحادى عشر الا أن الملحمة الأسبانية الوحيدة التى وصلت الينا كاملة هى « ملحمة السيد » ويرجع تاريخ كتابتها لعام ١١٤٠م ٠

ومع آن الشعر الغنائى يشترك مع الملحمة فى عدم القدرة على التعرف على تاريخ بداية كل منهما الا أن الملحمة كانت أسبق منه فى التدوين كما تفوقت عليه فى الانتشار والذيوع خلال القرون الأولى من العصر الوسيط ٠

ونظرا لأسبقية الملحمة فى التدوين اعتقد الكثيرون آن أول آثار الأدب الاسبانى ينتمى الى الملحمة لا الى الشعر الغنائى ٠ وظلت هذه الفكرة سائدة حتى نهاية القرن التاسع عشر الذى انبثقت فيه بعض الآراء والمراجعات المنطقية التى لم تكن مسلحة فى البداية بالأدلة المادية :

فالشاعر الجوال لم يكن يقتصر على انشاد القصائد الملحمية بل كان يلجأ أحيانا الى القصائد الغنائية ٠ واذا كان تاريخ الأدب قد احتفظ قبل ملحمة السيد بنتف من قصائد ملحمية تعود الى القرن الحادى عشر ولم يحتفظ بنماذج أو بقايا من الشعر الغنائى قبل القرن الرابع عشر، فان هذا لا يعنى بالضرورة عدم وجود هذا النوع من الشعر أو جهل مملكة قشتالة به ٠

أما بالنسبة لضياع هذا الشعر وفقدان الأثر الدال عليه فيمكن ارجاعه لسببين :

الموقف الدفاعى الذى اتخذته مملكة قشتالة ضد ذاتية وحسية الأدب العربى خوفا على هويتها من الانصهار فى بوتقة حضارته الأقوى ، وبالتالى عدم اهتمام القشتاليين بتدوين هذا النوع من الشعر ٠ أما السبب الثانى فيكمن فى لجوء كثير من شعراء قشتالة الى تأليف أشعارهم الغنائية

باللغة الجاليقية التي كان شعراؤها أسبق منهم في التأثر بالشعر الغنائي البروفانسي •

ويرجع الفضل في ترويج أمثال هذه الافتراضات المنطقية للعلامة مينندث بيدال الذى أشار الى حتمية وجود شعر غنائي قشتالى مستقل عن الشعر الجاليقى ، وهذا الشعر كانت تمثله الأغانى الشعبية للمناسبات المختلفة والتى كانت تصاغ على نفس أوزان الزجل العروضية ، ومن هذه الأغانى: القصائد الرعوية ، أغانى الربيع والزفاف والحج والحصاد وقطف الثمار •• الخ •

وبهذا الشكل فتحت آراء مينندث بيدال الباب أمام العديد من المحاولات الأخرى التى توجت فى النهاية بالأدلة العملية الملموسة •

ففى عام ١٩١٢ حاول المستشرق الأسبانى « خوليان ريبيرا » (معتمدا على نص جاء فى ذخيرة ابن بسام يشير فيه الى نشأة الموشحة وعروضها والى الألفاظ العامية والأعجمية التى يتألف منها مركزها أو خرجتها) ، حاول اثبات وجود شعر غنائي باللغة الرومانثية (الاسبانية القديمة) يسبق بواكير الأدب الغنائى الأوربى فى القرن الثانى عشر ، بل انه ذهب لأبعد من هذا عندما أشار الى أن هذا الشعر كان المورد الذى استقى منه شعراء التروبادور الفرنسيون •

والواقع أن كل هذا كان تخميننا من ريبيرا أشبه بالتنؤات الصادقة ، اذ لم يكن بين يديه فى ذلك الوقت نصوص يثبت بها آراءه •

وفى سنة ١٩٤٨ تلقت الدراسات الخاصة بالموشحات دفعة أخرى غير متوقعة بالبحث الذى نشره المستشرق الانجليزى س • م • ستيرن (S. M. Stern) تحت عنوان « الخرجات الأسبانية فى الموشحات العبرية » والذى كشف

فيه عن وجود خرجات آسبانية (الخرجة هى المقطع الشعرى أو القفل الذى تختتم به الموشحة) فى الموشحات العبرية التى آلفها اليهود على غرار الموشحات الاندلسية ·

وبعد ذلك بسنوات عثر المستشرق الاسبانى « اميليو جارثيا جومث » على خرجات اسبانية اخرى فى نهاية موشحات آندلسية يرجع تاريخها الى القرن الحادى عشر · والاكتشاف الأخير وضع يد الباحثين بشكل مباشر على هذه الأغنيات الصغيرة المكتوبة بالأسبانية القديمة (الرومانثية) والتى كانت الأساس الذى بنى عليه الوشاحون الأندلسيون موشحاتهم ·· ودراسة هذه الخرجات الرومانثية (الأسبانية) أظهرت أن عروضها «مقطعى» أى مقسما الى عدد معين من المقاطع مثل بواكير الشعر الأسبانى ، ولا يعتمد وزنها على أسباب وأوتاد كما تقضى بذلك قواعد العروض العربى ·

وبعد الاكتشاف الحديث لهذه الخرجات الأسبانية (والتى وصل عددها حتى الآن الى بضع وخمسين خرجة) فى نهاية الموشحات الأندلسية والعبرية ، التى يرجع تاريخ بعضها الى القرن الحادى عشر ، أصبح فى حكم المؤكد أن هذه المقاطع الشعرية الصغيرة كانت استمرارا لتقليد رومانثى قديم يمكن اعتباره نقطة الانطلاق أو البدء للشعر الغنائى القشتالى القديم وللشعر الجاليقى أيضا، لأن الشكل العروضى لمعظم هذه الخرجات أو الأغنيات القصيرة يتفق مع شكل الأغانى الشعبية الأسبانية المخصصة لعيد الميلاد (Villancicos) ، كما أنها تحمل نفس مضمون قصائد الصديق أو الحبيب الجاليقية (Cântigas de amigo) .

وعلى هذا يمكن التأكيد ، دون خوف ، بأنه الى جوار الشعر الغنائى الجاليقى ـ البرتغالى الذى وصلت الينا آثار مدونة له يرجع تاريخها الى القرن الثانى عشر ، كان يوجد شعر غنائى قشتالى (آسبانى) لم يبق منه سوى بعض

مقطوعات قصيرة في شكل خرجات ملحقة بالموشحات الاندلسية والعبرية التي يرجع تاريخ بعضها الى القرن الحادى عشر ٠

وبالاضافة الى تلك الخرجات ــ التى ادى اكتشافها مؤخرا الى تغيير كثير من الحسابات النقدية المتعلقة بالأدب الأسبانى بعامة وبشعره الغنائى على وجه الخصوص ــ احتفظ التاريخ للفترة السابقة على القرن الرابع عشر بقصيدتين يتيمتين ذواتى طابع غنائى قصصى ، وهما : «سبب الحب» ، و « الجدال بين هيلينا وماريا » ٠

ويمكن أن نلحق بالقصيدتين السابقتين قصيدتين دينيتين تنتسبان الى القرن الثالث عشر لأنهما تحتويان ، بالرغم من طابعهما الدينى المحض ، على ملامح غنائية ، وهما : « حياة القديسة ماريا المصرية » ، و « كتاب ملوك الشرق الثلاثة » ٠

وبعد هذه اللمحة القصيرة التى تعرفنا من خلالها على ملابسات نشأة الشعر الغنائى الأسبانى وأدركنا حقيقة تواجده قبل القرن الرابع عشر الميلادى الا أننا ــ للأسف ــ لا نستطيع تقديم نماذج منه للفترة السابقة على القرن المذكور ، لأن يد الزمان قد أتت عليه وطوته ضمن ما طوت من آثار انسانية أخرى ولم تبق منه سوى نتف صغيرة متفرقة ٠

د ٠ على عبد الرءوف البمبى

ملحمة السيد

منتصف القرن الثانى عشر الميلادى



أولا : تعريف موجز بملحمة « السيد »

يجمع النقاد على أن أهم الآثار الأدبية التى خلفها الأدب الأسبانى فى العصر الوسيط تتمثل فى ثلاثة : « ملحمة السيد » ، « كتاب الحب المحمود » لكاهن هيتا (وهو لون من السيرة الذاتية الشعرية) ، و «لاثيلستينا أو القوادة » (ويمكن أن تندرج تحت جنس القصة أو المسرحية) ٠

وملحمة السيد لا تقتصر أهميتها على حدود الأدب الأسبانى بل تتعداه وتتجاوزه الى كل الآداب الأوربية لأنها من أكمل وأتم ما وضع فى هذا الباب خلال القرون الوسطى ٠

ومن جهة أخرى فان هذه الملحمة تعتبر أول عمل أدبى يكتب باللغة الأسبانية ويصل نصه كاملا الينا ٠

ولقد أثارت الملحمة
أبرزها يتعلق بشخصية
وأصولها وبمدى مطابقة
وبالطبع فاننا لن ندخل
فيها كتب كثيرة لأنها لا تتفق وطبيعة هذا التعريف الموجز بالملحمة ، ومن ثم فاننا سنعمد مباشرة الى المعلومات التى أصبحت من المسلمات النقدية ٠

ومؤلف الملحمة أو مؤلفوها مجهولون ، لكن كتابتها ترجع لعام ١١٤٠م ٠٠ ونضج الملحمة وكمالها الفنى يعنى أن هناك ملاحم أخرى قد سبقتها ، وأن هذا اللون من الشعر الملحمى كان معروفا لدى القشتاليين منذ زمن بعيد ٠

لقد كان المناخ فى قشتالة مهيئا تماما لظهور هذا اللون من القصائد الملحمية وذيوعه وانتشاره فيهـا ، ويكفى ان نذكر بطبيعة الشخصية القشتالية البدائيـة التى لا تستسيغ التعبير عن الذات وتفضل الموضوعات غير الذاتية ، وبالتاريخ الحربى لمملكة قشتالة التى تحملت القسط الأعظم من الصراع العسكرى الطويل مع المسلمين حتى استطاعت استرداد آخر معقل اسلامى (غرناطة) عام ١٤٩٢ ، وأيضـا بانتشار ظاهرة الشـعراء الجـوالين الذين يجـوبون الآفاق متغنين ببطولات الفرسان وأمجادهم فى ساحات القتال ٠

وتشـير المـدونات التاريخيـة التى كتبت فى القرن الخامس عشر الى وجود قصـائد ملحميـة سابقة على ملحمـة السيد ، لكنها ضاعت ولم يبق ما يدل عليها سـوى الأخبـار المنثورة فى تلك المدونات ، ومن بين هذه الملاحم : «أسطورة دون رودريجو » ، وقصيدة « فرنان جونثالث » ، وقصيدة « أمراء لارا » ٠٠٠ الخ ٠

وملحمة السيد تحتـوى عـلى ما يقرب من أربعة آلاف بيت من الشعر ، وهى مقسمة الى ثلاث أنشودات :

أنشودة النفى :

وتتحـدث عن قرار الملك ألفونسـو السـادس (ملك قشتالة) بنفى السيد (١) خارج مملكته بعد تصديقه لوشاية أحد النبلاء والتى ادعى فيها بأن السيد احتفظ لنفسه بجزء من الجزية التى حصلها من ملك أشـبيلية المسـلم لصـالح مليكه ٠

وتروى الأنشـودة كيف خـرج السيد بصحبة أعـوانه وأتباعه من بلدته « بيبار » (Vivar) ، ومـــروره بمدينـــة

(١) اسم بطل الملحمة الحقيقى هو « رودريجو دياث دى بيبار » ٠ وله لقبان الأول « السيد » (El Cid) ولا يذكر هذا اللقب فى الملحمة الا مضافا الى ضمير المتكلم « سيدى » (Mio Cid) ـ اما اللقب الاخر فهو « القنبيطور » (El Campeador) ومعناه « البطل المحارب » ٠

برغش التى لم يستضفه أحد من سكانها خوفا من بطش الملك ، والخدعة التى لجأ اليها السيد لكى يحصل من بعض اليهود البخلاء على المال اللازم له ولأعوانه فى رحلتهم الطويلة ، ثم ايداعه لزوجته وابنتيه فى دير « كاردينيا » ووداعه لهن فى مشهد حزين ومؤثر ٠٠ وبعد ذلك يدخل فى سلسلة من الحروب مع ملوك الطوائف المسلمين يستولى خلالها على كثير من قلاعهم ومدنهم، كما يهزم كونت برشلونة ويأسره ثم يطلق سراحه ٠

أنشودة الزفاف :

وتحكى عن تتويج السيد لانتصاراته على المسلمين باستيلائه على مدينة بلنسية ، وهزيمته للجيش الذى أرسله ملك أشبيلية لاسترداد المدينة ، وانتصاره بعد ذلك على جيش المرابطين الذى جاء لنفس الغرض ٠

وبعد أن استقر به المقام فى مدينة بلنسية أرسل هدايا نفيسة وقيمة للملك ألفونسو السادس واستأذنه فى ضم زوجته وابنتيه اليه ، فأذن له ، ولحقت أسرة السيد به فى مدينة بلنسية ٠ وأثار تضخم ثروة السيد وعلو نجمه طمع وجشع أميرى « كاريون » فطلبا من الملك يد ابنتى السيد ٠ وبعد أن وافقهما الملك لم يجد السيد بدا من النزول على رغبته بالرغم من تشككه فى نية الأميرين وهدفهما ٠

أنشودة اهانة « كوربس » :

بعد حفل الزفاف أقام الزوجان مع زوجتيهما فى قصر السيد بمدينة بلنسية ٠ لكن الزوجين كانا مثارا لسخرية الجميع لجبنهما فى المعارك وللخوف الشديد الذى تملكهما عند مشاهدة أسد يتجول فى القصر وكان ضمن مقتنيات السيد من الحيوانات المتوحشة ٠ وكرد فعل جبان للسخرية منهما أضمرا فى نفسيهما الانتقام ، ولما اختمرت الفكرة برأسيهما طلبا من السيد اصطحاب زوجتيهما فى زيارة لموطنهما الأصلى ، فأذن لهما ٠ وفى الطريق وأثناء المرور

بغابة بسوط كثيفة جردا زوجتيهما من ملابسهما وقيداهما فى شجرتين. ثم أوسعوهما ضرباوجلدا بالسياط وتركوهما بين الحياة والموت وفرا هاربين • وعندما وصلت الأخبار الى السيد طلب من الملك القصاص منهما ، فانعقد البلاط الملكى فى مدينة طليطلة وأدين الأميرين بالخيانة ثم تحداهما أتباع السيد فى مبارزة بالسيف وخرجا منها منهزمين ومنكسى الرؤوس • وتنتهى الملحمة بزواج ابنتى السيد من أميرى « نبرة » . و « أراجون » •

من أهم ما يميز ملحمة السيد واقعيتها الشديدة ، فالمؤلف أو المؤلفون لم يبالغوا فى سرد الأحداث ولم يحلقوا فى عالم الخيال عند وصفهم للمعارك أو الشخصيات • ومن مظاهر الواقعية فيها نذكر : الاشارات الجغرافية للأماكن التى تتحرك فوقها الشخصيات ، وانتماء أبطالها لعالم الواقع وكذلك الأحداث التى تتضمنها . واشتمالها أيضا على وصف دقيق للعادات والملابس والأسلحة والطبقات الاجتماعية للعصر الذى ألفت فيه •

ولهذا لا يعد من قبيل المبالغة قول القائلين بأنه من خلال الملحمة يمكن التعرف على العصر الذى عاش فيه السيد بدقة تفوق أخبار المدونات التاريخية ••

ولا يعنى ما تقدم أن كل صغيرة وكبيرة اشتملت عليها الملحمة قد وقعت كما هى دون زيادة أو نقصان ، لأننا ندرك ما يمكن أن يسفر عنه التأليف الجماعى أو التناقل الشفوى لقصة ما قبل تدوينها ، لكن كتابة الملحمة بعد فترة قصيرة من موت بطلها (أربعين سنة فقط) قد حافظت على بقاء وقائعها الرئيسية ولم تتركها نهبا لخيال المتأخرين الخصب •

والأسلوب الذى كتبت به الملحمة ساهم أيضا فى توطيد هذه الواقعية لأنه يقتصد كثيرا فى الصنعة اللفظية والحلى البلاغية ولا يركز على انضباط الوزن العروضى (فالأبيات

الشعرية غير منتظمة القافية وان كانت تتفق فى أن كل بيت منها يتكون من أربعة عشر مقطعا موزعة على شطرين) ولا يعول كثيرا على فخامة الوصف • وفى مقابل هذا ، يتسم الأسلوب بالبساطة والعفوية والحيوية التى تستمد فعاليتها من العناصر العاطفية والدرامية المكثفة •

والملامح والخصائص المذكورة لملحمة السيد تميزها عن الملحمة الفرنسية والتى تخالفها فى كل ما سبق عرضه •

كما يجب أن نشير قبل أن نختم هذا التعريف الموجز الى آن ملحمة السيد تحتوى على الكثير من العناصر والمؤثرات الاسلامية •

ولن نسترسل آكثر من هذا فى الحديث عن الملحمة كما لن نترجم منها الكثير لأن د• الطاهر أحمد مكى قد قام بترجمتها كاملة وقدم لترجمته بدراسة شاملة وعميقة (دار المعارف ـ القاهرة) ، ولذا نوجه من يريد أن يعرف المزيد عن الملحمة الى ما كتبه الدكتور الطاهر عنها •

أما النصوص التى قمنا بترجمتها هنا فينتسب الجزء الأول منها (من رقم ١ الى ٥) الى النشيد الأول للملحمة ، بينما ينتسب الجزء الثانى (من رقم ٧١ الى ٧٥) للنشيد الثانى •

ثانيا : نصوص مترجمة من الملحمة (٢)

ـ ١ ـ

السيد يستدعي أتباعه ، الذين يقدمون على مرافقتــه في منفاه ــ وداع السيد لبلدته « بيبار » (٣) ٠

أرسل في طلب أقاربه وأتباعه وأخبرهم بأمر الملك له مغادرة مملكته (قشتالة) خلال تسعة أيام ، وأراد أن يعرف من يريد الذهاب معه ومن يفضل البقاء ٠

« من سيأتون معى ، من الله يلقون خير الجزاء ،
ولمن يقرر البقاء أمنياتى له بالسرور والهناء » ٠
حينئذ تحدث « البارهانييث » ، وهو ابن أخ للسيد :
« معك سنسير ، عبر القفار والعمار ،
لن نتخلى عنك أبدا طالما بقيت فينا حياة ،
وفى سبيلك سنبلى ما لدينا من بغال وخيول
وكل ثرواتنا وما نملك من ملابس مخملية ،
ودائما سنخدمك كأتباع أوفياء » ٠
آمن الجميع على ما قاله دون آلبارو ٠
بالشكر العميم قابل سيدى ما أجمعوا عليه ٠٠٠

---

(٢) النصوص المترجمة هنا ماخوذة من المصدر التالى .
« Cantar de Mio Cid », Prologoy notas de Luis Guarner. Biblioteca Edaf-balsillo, Madrid, 1970. (pp. 9-20, 137-147).

(٣) بيبار (Vivar) قرية صغيرة على بعد فرسخين من برغش (Burgas) ، وكانت محل اقامة السيد وفيها كل املاكه واقطاعياته ٠ ولقد اصبح ينتسب اليها فيقال رودريجو دياث دى بيبار ٠

خرج السيد من بيبار ، والى برغش سار متجها ،
تاركا هناك قصوره خاوية وليس لها وريث ·
من عينيه طفر الدمع الحزين ،
عندما التفت الى الوراء وظل يحدق فيهن
كانت الأبواب مفتوحة وخوخاتها دون أقفال ،
المشاجب خالية من القمصان والفراءات ،
هجرتها صقور الصيد والبواشق المستأنسة ·
تنهد حينئذ سيدى ، مثقلا بالأحزان ،
ثم شرع فى الكلام كعادته بدقة واعتدال :
« حمدا لك يا الهى » يا أبانا الذى فى السماء !
كل هذا من تدبير أعدائى الخبثاء » ·

— ٢ —

تفاؤل بالطير فى الطريق الى برغش

همز الفرسان الجياد ، وأطلقوا لها العنان ·
عندما خرجوا من بيبار على يمينهم كانت تطير الغربان ،
وعندما دخلوا برغش شاهدوها عن شمائلهم ،
حرك سيدى عطفيه وهز رأسه (٤) :
« يا لها من بشارة — قال — ، يا « ألبار هانييث » ،
من قشتالة نخرج الآن مطرودين وذات يوم
سنعود لهذه الأرض في شرف عظيم ! » ·

---

(٤) طيران الطيور على يمين المسافر فال حسن ، وعكس الطيران على الشمال ·
أما ايماءة تحريك الكتفين مع هز الراس فيقصد بها — حسب معتقدات العصر الوسيط — ابعاد الفال السيىء ·

— ٣ —

السيد يدخل برغش

دخل سيدى «رودريجور دياث دى بيبار» مدينة برغش،
وحوله ستون من حملة البيارق والأعلام ،
خرج الجميع لرؤيتهم، لم تتخلف النساء ومثلهن الرجال:
من النوافذ أطل البرغشيون والدموع فى المآقى والعيون
كم كانت أحزانهم عميقة !
وكل الأفواه الشريفة تردد هذه المقولة :
« يالله ، كم هو من تابع مثالى لو قدر له سيد طيب ! ».

— ٤ —

لا أحد يضيف السيد ــ فقط بنت صغيرة تتوجه اليــه بالحديث وتأمره بالرحيل ــ يجد السيد نفسه مضطرا لضرب خيامه فى « جليرا » خارج العمران .

عن طيب خاطر كانوا سيقدمون له المأوى ، لكن لا أحد
منهم يقدر على المخاطرة :

فالملك دون ألفونسو يكن للسيد بغضا شديدا .
قبل حلول الليل ، وصل الى برغش خطاب ملكى
عليه أختام صريحة ويحمل أوامر صارمة :
لا يقدمن أحد منكم «لسيدى روى دياث» مأوى أو سكنا،
ومن يتجرأ ويفعل فليعلم اذن عقوبته :
سيفقد أملاكه وعينيه اللتين يرى بهما ،
ولن يستطيع كذلك انقاذ جسده أو روحه .
حزن عميق ألم بهؤلاء السكان المسيحيين ،
كانوا يحتجبون عن « سيدى » ولا يجرءون على التوجه
اليه بالحديث .

حينئذ يمم « القنبيطور » وجهه شطر بيت كان له هناك،
وعندما وصل الى الباب ، وجده موصدا بالاقفال ،
لقد أغلقه من كان فيه خوفا من عقاب الملك ألفونسو ،
وبهذا الشكل فانه لو لم يتحطم فلن ينفتح بتاتا ٠
من كانوا فى معية سيدى نادوا بأعلى الأصوات .
ومن كانوا بالداخل لم يستجيبوا للنداء ٠
عندها همز سيدى جواده ، حتى أدرك الباب ،
أخرج قدمه من الركاب وركله مرات ،
لكن الباب لم ينفتح ، فقد كان موصدا باحكام ٠
طفلة فى الربيع التاسع من عمرها أمام سيدى توقفت :
« سيدى القنبيطور ، يا من تمنطقت سيفك فى ساعة مجيدة ،
اعلم أن الملك حرم علينا هذا ، وبالأمس جاءت رسالة
بأوامر صارمة وبالخاتم الملكى ممهورة ٠
لا نستطيع أن نقدم لك المأوى مهما كان السبب ،
لأننا لو فعلنا فقدنا أملاكنا وبيوتنا ،
وربما كلفنا فوق هذا الأعين التى فى الوجوه ٠
أيها « السيد » الطيب ! لو حاق بنا الأذى فلن يعود عليك بطائل ؟
فليحفظك الخالق ، ويسبغ عليك نعمه المقدسة » ٠
هذا ما قالته الصغيرة ثم عادت نحو بيتها مهرولة ٠
الآن تيقن « سيدى » أن من جهة مليكه لا يمكن أن تأتى مكرمة
حينئذ ترك الباب وغذ السير عبر المدينة ،
حتى وصل الى « سانتا ماريا » ، وعلى بابها نزل عن جواده ،
جثا بركبتيه على الأرض وبقلبه صلى ٠
ولما انتهى من صلاته ، اعتلى من جديد صهوة جواده ،
ثم خرج من باب الكنيسة واجتاز نهر « أرلنثون » ٠

وبجانب برغش ، هذه المدينة ، أقام معسكره في العراء
آمر بضرب خيمته هناك وعن حصانه نزل ·
« سيدى رودريجو دياث » ، من في ساعة مجيدة تمنطق
سيفه ،
على الرمال حط رحاله ، لم يستضفه أحد في بيته ،
لكن حوله خلق كثير كانوا جميعا تحت امرته ·
وهكذا عسكر « سيدى » كما لو كان في جبل ·
فلقد منع الملك أيضا أن يبيع له أهل برغش شيئا
من الأشياء التي تستخدم عادة كطعام ،
لا يجرؤ أحد أن يبيع له ولو في مقابل مال وفير ·

ـ ٥ ـ

« مارتين أنتولينث » يأتي من برغش حاملا المؤن للسيد

الطيب « مارتين أنتولينث » ، البرغشى الأكثر وفاء ،
آمد سيدى وأتباعه بالخبز والنبيذ :
لم يتبعهما من أحد ، لأنهما كانا من جملة ما جاء حاملا
معـــــه ،
وهكذا زودهم بالضرورى من المؤمن والزاد ·
أوفاه سيدى القنبيطور حقه من الشكر
وكل من كانوا معه لهجوا بحسن صنيعه ·
عندما تحدث « مارتين أنتولينث » ، فاسمعوا ما قاله :
« سيدى القنبيطور ، يا من ولدت في ساعة مباركة !
لنسترح هذه الليلة كي نستأنف المسير فجرا ،
لأنى أصبحت متهما بما حملته اليكم ،
وبسورة غضب الملك ألفونسو سأكون مشمولا ·
اذا استطعت الفرار معكم من هذه الأرض حيا معافى ،
فالملك ، ان عاجلا أو آجلا ، سيخطب ودى ،
واذا لم أستطع ، فلست آبالى بما خلفت ورائى » ·
. . . .
. . . .

— ٧١ —

الاستيلاء على منطقة بلنسية

عاش فى أرض المسلمين ، يغزو وينهب فى كل اتجاه
ينام النهار ، ويمضى الليل بطوله سهران
ولكى يستولى على ذلك الوادى انفق « سيدى » ثلاثة
أعوام ٠

— ٧٢ —

السيد يحاصر مدينة بلنسيه — وينادى بالحرب بين المسيحيين

المسلمون الموجودون فى بلنسية يتجرعون كئوس العذاب،
لم يكونوا يجرءون على مغادرتها ، ولا مواجهته فى
ساحة القتال ،
يقطعون لهم أشجار البساتين منزلين بهم كثيرا من الخراب،
تركهم سيدى خلال تلك الأعوام الثلاثة دون كسرة خبز ٠
يضج بالشكوى أهالى بلنسية ولا يدرون أى طريق
يسلكون ،
لأن الزاد لا يمكن أن يصل اليهم من أى اتجاه ،
لا الوالد يستطيع تقديم العون لولده ولا هذا لأبيه ،
والصديق فى شغل عن صديقه ليس بوسعه أن يواسيه ٠
الافتقار الى الخبز ، يا سادة ، غم ليس له شبيه ،
ها هم الأطفال والنساء يلقون حتفهم جوعا ٠
يرون آلامهم ماثلة أمام عيونهم ومن التخلص منها
عاجزون ٠
يطلبون العون من ملك المغرب وبه يستنجدون ،
لكنه فى جبال الأطلس مشغول بحرب الموحدين ،
لذا فان نجدته لن تصل ولمساعدتهم لن يستطيع القدوم ٠
عرف هذا سيدى ففاض قلبه بالبشر والسرور ،
وذات ليلة خرج من مربيطر ممتطيا جواده ،

طلع عليه الفجر فى أراضى « مونتريال » ٠
الى أراجون ونبرة أرسل المنادين ،
حتى أراضى قشتالة طافت بها رسله ٠
« كل من يرغب فى ترك أشغاله وكسب راتب الجندية
فليأت مع سيدى الذى عزم على القتال ،
ليقدم للمسيحيين بلنسية بعد أن ضرب عليها الحصار :

ــ ٧٣ ــ

تكـــرار النـــداء

من يرغب فى المجىء معى والمشاركة فى حصار بلنسية،
فليأت طوعا وبارادته ، لا أريد أحدا مكرها ،
بالقرب من قناة « ثيلا » سأنتظر القادمين ثلاثة أيام
بلياليها » ٠

ــ ٧٤ ــ

تلبية الناس للنداء ــ الحصار وسقوط بلنسية

هذا ما قاله سيدى القنبيطور المخلص ٠
وبعد ذلك عاد الى مربيطر التى هى الآن فى قبضته ٠
ذهب المنادون الى سائر الأنحاء لنشر الخبر ،
وعلى أمل الفوز بالغنائم لا يريد أن يتخلف أحد ،
وبدافع المسيحية الخالصة لبى كثيرون النداء ٠
لذيوع صيت السيد ووصـول أخبـار مآثره الى كافة
الأرجاء ،
فمن تجمعوا حوله يزيد عددهم كثيرا عمن آثروا البقاء ،
ومن الكثرة الى الوفرة ينتقل سيدى صاحب بيبار ٠
عندما شاهد الجموع التى لا تحصى غالبه السرور ،
لم يرد سيدى القنبيطور اطالة الانتظار ،
الى بلنسية اتجه وفوقها أطبق كالاعصار ،
وبمهارة فائقة أحكم عليها الحصار ،

وعلى رأس جيشه ترونه يصول كما تشاهدونه يجول .
مهلة أعطاها لهم لعل أحدا يخف لنجدتهم (٥) .
تسعة أشهر كاملة دام الحصار (٦) :
عندما دخل الشهر العاشر لم يكن أمامهم سوى التسليم .
عظيمة كانت البهجة التى عمت المكان ،
حينما كسب سيدى بلنسية وأخيرا دخلها .
من قدموا راجلين على متون الجياد الآن يركبون ،
والذهب والفضة ، من يستطيع عدها ؟
لقد أصبح غنيا كل من دخل المدينة فاتحا .
نصيب سيدى كان خمس الغنائم والأسلاب (٧) ،
ثلاثون ألف مارك من مسكوكات النقود
ومن الثروات الأخرى ، من فى وسعه الاحصاء ؟
يا لفرحة سيدى ومن كانوا هناك معه
عندما شاهدوا فى أعلى الحصن رايته يداعبها الهواء ! .

ـ ٧٥ ـ

ملك أشبيلية يحاول استرداد بلنسية

بينما كان سيدى ومن فى صحبته ينعمون بالراحة
والاستقرار ،
الى ملك أشبيلية وعاهلها طارت الأخبار
بسقوط بلنسية دون افتداء من أحد .
لمهاجمتهم سار فى ثلاثين ألف رجل مدججين بالسلاح .

---

(٥) طبقا لما رواه المؤرخون العرب فان السيد اعطى لسكان بلنسية مهلة اخيرة مدتها خمسة عشر يوما لانتظار النجدة التى قد تصلهم من ملك سرقسطة أو ملك مرسية ، واذا انقضت المهلة ولم يخف احد لنجدتهم فعليهم اذن تسليم المدينة له .

(٦) حصار بلنسية لم يستمر تسعة اشهر ــ كما تقول الملحمة ــ بل عشرين . ويفسر مينندث بيدال هذا اللبس قائلا . ان شاعر الملحمة يقصد المرحلة الثانية من الحصار والتى بدأت بعد عودة السيد من جولته فى الممالك المسيحية لجمع المزيد من المقاتلين .

(٧) تقسيم غنائم الحرب الى اخماس يعتبر احد التأثيرات الاسلامية الكثيرة فى الجانب المسيحى الاسبانى ــ (المترجم) .

وفى بساتين بلنسية دارت رحى الحرب مع المسيحيين ،
حمل عليهم سيدى صاحب اللحية المرسلة
واستمرت المعركة حتى أزاحهم الى مدينة شاطبة ،
وعند عبورهم نهر شقر صاروا شملا ممزقا ،
فر المسلمون متباطئين وهم يتدافعون ومن الماء أخذوا يحتسون مجبرين ٠

وملك أشبيلية نفسه لاذ بالفرار وعلى جسده ثلاث ضربات بفأس ٠

عاد سيدى محملا بالغنائم والأسلاب ،
ان كان قد غنم كثيرا بعد استيلائه على بلنسية ،
فان ما جمعه فى هذه الحرب يفوق ما تقدم بمراحل ٠
فمن هم أقل شأنا حصل الواحد منهم على مائة مارك من الفضة ٠

والى أى مدى يمكن أن تتخيلوا ذيوع أخبار الفارس المقدام ٠

جونثالو دي بيرثيو

(GONZALO DE BERCEO)

النصف الأول من القرن الثالث عشر

أولا : نبذة عن الشاعر

الأخبار التي وردت في كتب الأدب عن حياة «جونثالودى بيرثيو » تكاد تكون معدومة ، ومن الأرجح أنه ولد فى نهاية القرن الثانى عشر فى بلدة « بيرثيو » ـ التابعة لمحافظة « لاريوخا » (La Rioja) ـ ، وتوفى فى منتصف القرن الثالث عشر أو بعده بقليل • وقد تلقى تعليمه فى دير « سان ميلان دى كوجويا » ، ثم ظل لسنوات طويلة يعمل قسيسا فى نفس الدير •

ويمكن القول بأن « بيرثيو » هو أول شاعر أسبانى معروف الاسم ، لأن الأدب الأسبانى كان قبله أدبا جماعيا يشترك فى وضعه مؤلفون مجهولون ، ولم يكن أى منهم يترك اسمه على هذا العمل أو ذاك ، ومن ثم فقد ظل هذا الأدب لفترة طويلة يتسم بصفة المجهولية •

ولقد ذكرنا من قبل ـ فى المقدمة ـ أن الشعراء الجوالين والتروبادور هم الذين أنشأوا الملاحم وكتبوا الشعر الغنائى باللغة الأسبانية الوليدة ، وكان لهم جمهور كبير من بين الطبقات المختلفة (وان كانت غالبيته تنتمى الى الطبقة الشعبية) • وفى مقابل الانتشار الواسع للشعراء الجوالين والتروبادور انكمش شعراء الكنيسة (أو الشعر الدينى) لأنهم كانوا يكتبون باللغة اللاتينية التى لم يكن يفهمها معظم الناس أيامها • لكن رجال الدين سرعان ما استوعبوا الدرس ونزلوا الى الساحة بشعراء جوالين يعالجون فى أشعارهم موضوعات دينية ويقدمونها للناس ـ بقصد التهذيب والتربية العقائدية الأخلاقية ـ فى صورة مبسطة وباللغة

الأسبانية التى يفهمونها • وقد أطلق على شعر رجال الدين فى القرن الثالث عشر «صنعة الاكليروس» (El Mester de clerecia)

والاسلوب الذى استخدمه رجال الدين كان أكمل وأرقى من الاسلوب الذى كان يستخدمه الشعراء الجوالون العاديون، كما أنهم استخدموا وزنا عروضيا أكثر انتظاما وانضباطا، اطلقوا عليه مصطلح : «لاكوادرنا بيا» (La cuaderna Via) وهذا الوزن العروضى عبارة عن مقطوعة شعرية تتألف من أربعة أبيات متحدة القافية ، وكل بيت فيهـا يحتـوى عـلى أربعة عشر مقطعا •

وقد استخدم « بيرثيو » هذا الوزن العــروضى فى كل أعماله •

ويمكن حصر الانتاج الشعرى لـ « بيرثيو » ــ والذى كان كله دينيا ــ فيما يلى :

ــ ثلاثة أعمال عن حياة ثلاثة من القديسين ، وهم : « سان ميلان ، سانتا آوريا ، سانتو دومينجو دى سيلوس » •

ــ ثلاثة أعمال أخرى عن العذراء مريم ، وهى : « فى مدح العذراء » ، « نواح العذراء على ابنها يــوم صلبه » ، و « معجزات سيدتنا مريم » •

ــ وبالاضـــافة الى ما تقــدم توجــد ثلاث قصائد ذات موضوعات متنوعة ، وهى :

« استشهاد ســان لورنثــو » ، « قربان القــداس » ، و « علامات يوم القيامة » •

ــ كما ترجم ثلاثة أناشيد لاهوتية •

ومن بين كل الأعمال السابقة تبرز « معجزات سيدتنا مريم » كأهم عمل كتبه « بيرثيو » على الاطلاق • ويتألف هذا العمل من ٩١ مقطوعة شعرية (أى ٣٦٤٤ بيتا من الشعر) ،

وهى موزعة على النحو التالى : السبعة والأربعون الأولى منها عبارة عن مدخل ومقدمة ، أما بقية المقطوعات فتتحدث عن خمس وعشرين معجزة للعذراء .

ويذكر أن الأدب الدينى الخاص بمريم العذراء قد شهد طفرة كبيرة واهتماما بالغا فى اوربا الغربية مع بداية القرن الحادى عشر . وتمخض هذا الاهتمام عن كم هائل من القصص الأسطورية التى تدور حول معجزات البتول . بالاضافة الى كثير من قصائد المديح والى أعمال أخرى ذات طابع عقائدى .

وعلى هذا ، فان المعجزات (الخمس والعشرين) التى ضمنها « بيرثيو » عمله قد استقاها من مصادر اخرى ، لكنه بالرغم من شدة وفائه لتلك المصادر ـ حسبما تشير بعض الأبيات ـ الا أنه استطاع أن يضفى سحرا وديناميكية على المادة العقائدية ، وأن يجذب اهتمام جمهور السامعين بأسلوبه الرقيق والبسيط والشيق فى آن واحد .

وكثيرا ما كان « بيرثيو » يتوجه الى جمهوره ـ على غرار ما كان يفعله الشعراء الجوالون ـ طالبا منه حسن الاستماع لما يقول :

> أيها الأصدقاء ، انتبهوا قليلا وأصيخوا السمع ،
> لدى معجزة رائعة أود أن أشنف آذانكم بها .

وكما كان الشعراء الجوالون يطلبون من الجمهور بعد الفراغ من انشاد قصائدهم المقابل المادى (سواء أكان مالا أم طعاما أم ثيابا .. الخ) ، فان « بيرثيو » قد سار على منوالهم لكنه لم ينس صفته كرجل دين ولذلك كان يستبدل بالأشياء السابقة « كوبا من النبيذ الجيد » .

ثانيا : مختارات من « معجزات سيدتنا مريم » (١)

قبل أن يقص الشاعر معجزات العذراء ، يبدأ عمله بمقدمه مجازيه رمزيه (١٨٨ بيتا من الشعر) يذكر لنا فيها أنه كان ذاهبا الى الاماكن المقدسة بقصد الحج ، وعندما أنهكه الطريق وبلغ به التعب مبلغه أبصر مرجا رائعا لم تمسه قدم انسان من قبل ، فنزل به ليستريح من وعثاء السفر • وها هي المقطوعات الأولى من هذا العمل :

أحباب وأتباع الرب القدير ،
لو تفضلتم على بالسماع ،
أقص عليكم واقعة مثيرة
جرت لى فى وضح النهار •

★★★

أنا المعلم « جونثالو دى بيرثيو » الرحال ،
كنت في طريقى الى الحج فأدركت مرجا
أخضر لم يمسسه من قبل بشر ، يغص بالأزهار
مكان كالحلم لمسافر أرهقه السير وضايقه الغبار

★★★

من الأزهار العطرة كانت تنبعث الروائح الزكية ،
لترطب للمرء الوجه وتنعش له الخاطر ،
وبجوار الحصى تتفجر ينابيع صافية ، جارية ،
فى الصيف باردة ، فى الشتاء فاترة •

---

(١) هذه المختارات من كتاب Lengua espanola y literatura (3° BUP) José Arribas y Galo Yague. Ediciones Didascalia, Madrid Barcelona, 1982.

وبعد أن ينتهى الشاعر من وصف المرج ينتقل الى شرح الرموز التى يشتمل عليها : فالرحلة الى الحج تعنى رحله الحياة ، والمرج الأخضر رمز للعذراء التى تخفف بجودها وحلمها جراح وآوجاع الاوفياء المتقين ، والينابيع ترمز الى الأناجيل الأربعة ، أما الأزهار فتشير الى أسماء مريم البتول، وآهازيج الطيور رمز لأصوات السعداء فى الجنة .. الخ .

وفيما يلى نقدم بعض هذه المقطوعات (ابتداء من المقطوعة السادسة عشرة) :

آيها السادة والأصدقاء ، ما فرغنا من قوله
به كلمات مبهمات . فى حاجة منا لايضاح :
لننزح عنها اللحاء ، ونقصد منها النخاع ،
ولنمسك بالجوهر ، تاركين الشكل والمظهر .

★★★

كل من يحيا وعلى قدميه يسير ،
حتى لو كان مسجونا ، أو مضطجعا على سرير ،
ما هو الا حاج (مسافر) يمشى الطريق :
هذا ما قاله « سان بدرو » ، والحياة عليه دليل .

✶✶✶

حيواتنا خطى نمشيها ولا يمكن ردها ،
لها آمد معلوم ولا نستطيع مدها ،
ورحلتنا تصل الى نقطة الانتهاء
حيثما تصعد آرواحنا الى السماء .

✶✶✶

فى تلك الرحلة نلتقى بمرج بهيج ،
يستعيد فيه قواه كل مسافر مكدود ،

نلتقى بالعذراء المجيدة ، ام أحسن مخلوق ،
من لم يعثر له على مساو أو شبيه ٠

★★★

هذا المرج كان دائما أخضر العفة ،
لم يدنس نقاوته ميل ولا هفوة ،
لقد كانت حقا عذراء بعد وأثناء الولادة ،
طاهرة الذيل ، جميع ما فيها لم يخالطه فساد ٠

★★★

والينابيع الصافية التى تتدفق فى المرج ،
هى الأناجيل الأربعة ، هذا معناها ،
ذلك لأن مؤلفيها الأربعة الذين دونوها ،
كانوا مع العذراء يتشاورون أثناء الكتابة ٠

★★★

وكل كانوا يكتبونه ، قومته ونظرت فيه ،
وما أثنت عليه ، كان فى غاية الرسوخ والرصانة :
يبدو أن الرواء كله كان منها ينبثق ،
فما كان يمكن الاهتداء الى شىء لولاها ٠

★★★

أما ظل الأشجار الظليل ، العذب والصحى ،
الذى يسترد تحته المسافرون العافية والراحة ،
انه الصلوات التى تؤديها القديسة ماريا ،
وفيها تدعو للمذنبين آناء الليل وأطراف النهار ٠

★★★

كل من فى العالم من أخيار وأشقياء ،
ملوك وأباطرة ، عظماء وجهلاء
هناك نهرول جميعا ، سادة وأتباعا ،

الى ظلها كى نقطف الرياحين والأزهار ٠

★★★

والأشجار التى تمد الظل عذبا وكريما ،
هى المعجزات المقدسة التى تصنعها المجيدة ،
انها أشد حلاوة من الاكسير اللذيذ
الذى يخلص المريض من الهم الشديد ٠

ومن بين المعجزات الخمس والعشرين التى يشتمل عليها هـذا العمل نقدم فيما يلى المعجزة التاسعة ، وهى بعنوان : « الراعى الكنسى الجاهل » ٠

كان راعيا كنسيا بسيطا وفقيرا من رجال الدين ،
يصلى باستمرار قداسا لمريم البتول ،
لم يكن يحسن غيره ، وكل يوم يردده :
لم يكن عن علم يعلمه بل من كثرة المداومة ٠

★★★

وبسبب هذا القداس اتهم عند الأسقف
بالحمق ، وعدم مناسبته للاكليروس :
«السلام عليك يا مريم ٠٠» صلاته الوحيدة المستخدمة،
لا يعرف الأخرق المكتظ غيرها ولا يجيد سواها ٠

★★★

اشتاط الأسقف غيظا وتململ فى مقعده ،
قال : « لم أسمع بمثل هذا مطلقا عن مقيم قداس ،
أخبروا ابن أسوأ زنيمة وسيدة
أن يمثل فورا أمامى ، لا تمهلوه الى الصباح » ٠

★★★

حضر أمام الأسقف المذنب مقيم القداس ،
تراه من فرط خوفه وقد امتقع لونه ٠

لا يستطيع من خجله رفع عينيه فى سيده ،
لم يتصبب المسكين عرقا مثل هذا من قبل ·

***

بادره الأسقف : « يا مقيم القداس ، أصدقنى القول ،
أصحيح أن حماقتك فعلا بمثل هذا الحجم ؟ » ·
أجابه الرجل الطيب : « سيدى ، حبا فى الله ،
لو قلت لا ، أكون قد كذبت » ·

***

قال له الأسقف : « بما أنك لا تعرف
قداسا غيره ، ولست مؤهلا ، ولا قادرا ،
آمرك بترك الصلاة ، أوقفك وأفرض عليك الحظر ،
وفى جلسة أخرى سأنظر ما تستحق من عقاب » ·

***

مضى الراعى لحال سبيله حزينا رث الثياب ،
يلفه حزن عظيم ، وقد مسه الضر وأناب ،
توجه الى المجيدة مبتهلا وشاكيا ،
وفرائصه ترتعد ، طالبا العون والسلوان ·

***

الأم الغالية التى لا ترد أبدا
دعوة لمظلوم مقهور أو مستجير ،
عندما سمعت راعيها وهو يبث شكواه ،
لم تؤجلها ، وأذهبت عنه ما أضناه ·

***

العذراء المجيدة ، والأم الرءوم ،
ظهرت للأسقف بعد ذلك فى المنام :

وفى موعظة قاسية ، أوجعته بأقذع كلام ،
كاشفة عما يحمله قلبها من عدل وآمان ·

★★★

قالت له بحدة : « ايها الأسقف المتأنق النضير .
ضدى ، لماذا كنت فظا وغدا معدوم الضمير .
مع آن قدرك عندى لم يصل أبدا لحبة شعير .
الا آنك نصبت على كأسقف كبير ·

★★★

من ينشد لى القداس كل يوم ،
تحكم على عمله وكأنه نوع من الهرطقة :
تسفه آحلامه وترميه بالخرق والعته ،
وبعد هذا تقصيه [illegible]ن سلك الرهبنة ·

★★★

اذا لم تسمح [illegible] [illegible]ردة لانشاد قداسى
كما كان يفعل ، تقوم بينى وبينك خصومة أبدية ،
وبعد ثلاثين يوما من الآن ستموت شر ميتة ،
لتعلم كم هو عظيم قدر القديسة ماريا ! » ·

★ ★ ★

لهذه التهديدات ألم بالأسقف الفزع ،
آرسل فى طلب مقيم القداس المحظور عليه العمل .
رجاه بأن يغفر له ما ارتكب فى حقه من خطأ .
فقد غرروا به ولم يحسن فى قضيته النظر ·

★★★

توسل اليه أن ينشد كما اعتاد الانشاد ،
وآن يظل فى خدمة المجيدة ومن مذبحها قريبا .

١

وان كان ينقصه شيء من لباس أو نعال ،
فسيعطيه من عنده كل ما اليه يحتاج ·

★★★

عاد الرجل الصالح الى أبرشيته ،
متفانيا في خدمة المجيدة ، ماريا محبوبته ،
حتى وافاه الأجل ـ كما تمنى ـ أثناء خدمته ،
فصعدت روحه الى بارئها ، واستقرت في جنته ·

***

خـــوان رويث (كاهن هيتا)

JUAN RUIZ (ARCIPRESTE DE HITA)

١٢٩٥ - ١٣٥٣م

أولا : تعريف بالشاعر وبانتاجه الشعرى

حتى وقت قريب لم يكن يعـرف عن خوان رويث (Juan Ruiz) سـوى ما أورده عن نفسـه فى مؤلفـه « كتاب الحب المحمود » (Libro de buen amor) لكن بعد الافراج عن بعض الوثائق فى الفاتيكان والعثور عـلى وثائق أخرى فى عدد من الكنائس الأسـبانية أصبحت لدينا الآن فكرة شبه واضحة عن حياة هذا الشاعر الكبير الذى دخل التاريخ الأدبى من خلال لقبه « كاهن هيتا » (Arcipreste de Hita) ، وهى الوظيفة الدينية التى كان يشغلها فى قرية « هيتا » التى تقع فى محافظة وادى الحجارة .

ولد خوان رويث عام ١٢٩٥ فى الجانب الاسلامى من الأندلس ، ابنا غير شرعى لرجل ثرى من « بالنثيا » يدعى « أرياس جونثـالث » . وقد أمضى والده خمسـا وعشرين سنة فى الأسر عند أحد المسلمين ، وخلال فترة أسره عرض عليه سيده الزواج بجارية مسيحية كانت عنده ، فتزوجهـا « أرياس » وأنجب منها عدة أولاد . وقد شملت ملكة قشتالة وقتها (ماريا دى مولينا) برعايتها خوان رويث وتم اعداده كرجل دين . وقد أتاحت له هذه الفرصة بعض الأسفار الى خارج أسبانيا (ايطاليا ، جنوب فرنسا) ، كمـا أتاحت له الوقت الكافى للدراسة والاطلاع والتزود من المعرفة .

وقد عين كاهنا لمدينـة « سيجوينثا » ولم تكن سنه قد تعدت الستة عشر ربيعا . وبعـد ذلك تولى عـدة منـاصب

إجتماعية كبيرة مثل تعينه كاهنا لقرية « هيتا » أو رئيسا للشمامسة في « مدينة دل كامبو » أو كاهنا لمدينة « بالنثيا » ٠٠ الخ ٠

ويلف الصمت الفترة الأخيرة من حياته ، ويرجع النقاد والمؤرخون هذا الى الزج به في غياهب السجن لعدة سنوات عقابا له على مؤلفه « كتاب الحب المحمود » ٠ وبالرغم من صفته الدينية وثقافته الرفيعة الا أن خوان رويث كان شاعرى المزاج ، قلق الروح ، يعيش حياة فوضوية ، ويؤثر أن يتحرك وسط أجواء شعبية برفقة راقصات يهوديات وزامرين مسلمين ورجال دين من عشاق السهر ٠

وقد كان يمضي في الحانات وقتا أكثر من الوقت الذى كان يمضيه في الكنائس ، كما تحدث عن الحب والشعر والكأس أكثر مما صلى بالناس القداس ٠ والنقاد يضعونه في مصاف شعراء الغزل الكبار ، أمثال : أوفيد ، دانتي ، بترارك ، شكسبير ، هاين ، فرلين ، عمر بن أبي ربيعة ، العباس بن الأحنف وابن زيدون ٠٠ الخ ٠

والأثر الشعرى الوحيد الذى وصل الينا من انتاجه يحمل عنوان « كتاب الحب المحمود » ٠ وهذا المؤلف ــ الذى يصعب وضعه تحت جنس أدبي معين ــ عبارة عن قصيدة طويلة تزيد عن ١٧٠٠ مقطع شعرى (أغلب هذه المقاطع « رباعيات ») يدور معظمها حول فن الحب ٠ وهذا اللون من الشعر كان قد ازدهر في أوربا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، حين أدار الشعراء ظهورهم للشعر الديني الوعظي، واتخذوا من الانسان وحياته وحي الهامهم، فأبدعوا شعرا رقيقا يدور حول الحب والخمر ويتخذ من الجامعات والمنتديات الثقافية مقرا يلوذ به ويحتمي ٠

وبالرغم من موضوعات الكتاب المتعددة واشتماله على الوان أدبية مختلفة الا أننا يمكن أن نصنفها على النحو التالي:

- الحكايات والمشاهد القصصية :

وتضم سلسلة طويلة من المغامرات العاطفية فى شكل ترجمة ذاتية بطلها الشاعر نفسه • كما تشتمل على بعض الأمثولات والقصص على لسان الحيوان ، بالاضافة الى قصة خفيفة الظل بطلها « دون ميلون » (خوان رويث) و « دونيا آندرينا » علاوة على شخصية القوادة التى تساعد فى لم شمل العاشقين •

- استطرادات ذات طابع أخلاقى اجتماعى أو ساخر :

وفى هذه الاستطرادات الأخلاقية يصور لنا خوان رويث الصراع الحاد بين الاحساس الدينى وبين عواطف الانسان العادى فى العصر الوسيط ، ويضعهما وجها لوجه ، فنحس بآلامه ونتمثل آزمة العادات فى عصره (ويمكن آن نضرب مثلا على هذا بالقصيدة التى تصف المعركة التى جرت بين « دون كارنال » وبين « كواريسما » وبصحبة كل منهما جيش يؤازره ، وفيها يسخر من رجال الدين ومن طبقة الفرسان على حد سواء) • فالشاعر بالرغم من كونه رجل دين لا يتردد فى مهاجمة رجال الدين فى عصره والسخرية من العلاقات الغرامية بين الرهبان والراهبات •

- الشعر الغنائى (الدينى أو الدنيوى) :

ويضم قصائد دينية فى مدح العذراء والمسيح ، كما يضم قصائد على لسان الشحاذين والطلاب الفقراء ، وقصائد تتحدث عن مغامرات الشاعر مع بعض الريفيات اللاتى يسكن الجبال •

وبالرغم من تعدد عناصر الكتاب وموضوعاته الا آن هناك اطارا يحافظ على وحدة العمل الأدبى • وهذا الاطار يتمثل فى المنحى الأخلاقى - التربوى الذى يسيطر على روح الكتاب ، وفى السيرة الذاتية التى تعتمد على تقنية محكمة

وتستلهم آشياء واقعية ، وحول هذه السيرة تتجمع الأفكار والعناصر الاخرى ٠

وخوان رويث شاعر زئبقي لا يمكن أن نضع أيدينا بسهولة على ما يريد ويقصد ، لانه يخلط بين المتنافضات ولا يدع لنا الفرصة حتى نضعه في خانة معينة ٠ فهو مثلا يلتقط الأخلاق والعادات السائدة وينتقدها نقدا لوذعيا ، ومع ذلك فانه يضرب صفحا عن مقاصده الآخلاقية الصارمة ويلجأ الى الموقف البرجوازى الذى يتسم بالدعابة وخفة الظل ٠٠ كما أنه قد ينطلق أحيانا من أشياء دينية بحتة لينتهي الى أهداف دنيوية ، بينما نجده يضمن آقاصيص وحكايات أخرى مغرقة في الملذات والمتع الدنيوية بعض الاشارات والعلامات التي تشير الى مغازى أخلاقية ٠٠ وفي بعض الأحيان نجده ينتقل من هدف الى نقيضه بشكل مفاجيء دون آن يترك لنا أى آثر نستطيع أن نستدل به على مكانه أو موقفه ٠ وعلى سبيل المثال فانه يذكر ، عند حديثه عن الغاية من تأليف كتابه (في المقدمة) ، أنه وقف على لونين متناقضين للحب : الحب المحمود كما تنظمه الشرائع السماوية ، والحب المجنون الآثم الذى يجتاح العالم ، وأنه ألف كتابه بقصد ابعاد البشر عن « بعض الطرق والأساليب والحيل الخادعة للحب الدنيوى المجنون والتى يلجأ اليها الكثيرون فيقعون في المحظور ويقترفون الآثام ٠٠٠ وهؤلاء يفقدون أرواحهم ويحل بهم غضب الله وسخطه » ، لكنه لا يلبث آن يقول بعدها مباشرة : « ومع هذا ، فالخطيئة من طبع البشر ، ومن ثم فاذا كان البعض ــ ولا أنصحهم بهذا ــ يتوق للانغماس في الحب المجنون فانه سيجد هنا من الوسائل والطرق ما يعينه على ذلك » ٠

ومع هذا ، لا نستطيع أن نقول عن كاهن هيتا انه لم يكن متدينا لأن قصائده الدينية في الكتاب تنم عن هوى وشغف ديني لا يقلل من قدرهما ظروف حياته الخاصة وملابساتها٠ صحيح آن هناك بونا شاسعا بين التدين العميق المتزن للشاعر

« جوننالو دى بيرثيو » (وهو شاعر دينى بحت) وبين الحسية المفرطة لخوان رويث ، لكننا لا نستطيع أن ننتفص من قدر العاطفة الدينية التى تغلف توسلات الاخير لمريم العدراء حين تلم به الملمات أو تحدق به المخاطر • فهو شاعر خالع العذار ودنيوى فى معظم الاحيان ، لكن عاطفته الدينيــة المتاججة لا تلبث أن تطفو على السطح فى أوقات الشدة •

وبهذا الشــكل يمكن القــول بأن الباعثين أو الدافعين الرئيسيين اللذين يحركان انسان العصور الوسطى (الالتصاق بالقيم الدينية والروحية المتوارثة • والاستمتاع المندفع بنعم الحياة وملذاتها) يجتمعان سويا فى شخصية خوان رويث •

وقد دفع هذا أحد النقاد (أميريكو كاسترو) لأن يقول ان خوان رويث قد أسبن ومسح (بتشديد وفتح الســين) (اى جعل أسبانيا ومســيحيا) الســمتين الأساسيتين للأدب العربى فى القرون السابقة والمتمثلتين فى : الافراط فى الحسية ، ونموذجية الأخلاق والسلوكيات •

النظرة الواقعية الساخرة :

تمثل الواقعية والســخرية القطبين الأســاسيين لبناء « كتاب الحب المحمود » • ويعتبر كاهن هيتا لذلك من أبرز المتهكمين والواقعيين فى الأدب الاســبانى • ومع هذا فان ملاحظاته التهكمية الساخرة لا تأتى تلبية للرغبه الخبيثــة فى تجريح ما حوله ، لكنهــا تهــدف الى ابراز التناقض فى بعض العــادات والســلوكيات ، أو الى لفت النظر بطريقــة ساخرة الى مواقف معينة •

ولا يعنى هذا أن ملمح التهكم والسخرية عنده تشــوبه السـذاجة والســطحية ، بل انه عــلى عــكس ذلك مقصــود ومتعمد •

ومن التقنيات التى يتبعها خوان رويث فى هذا الشأن أنه يغطى ــ فى بعض الأحيان ــ هدفه الساخر بقناع الوعظ

والارشاد ، لكن الاشارات والتلميحات التي تظهر فجأة ودون مقدمات في السياق الوعظي تكشف عن مراده ومقصده الحقيقي ٠

وسخريات خوان رويث (ذات الطابع البشوش والممتع والتي تتفادى التشاؤم القاتم وتدعو الى الضحكة الصريحة) تتطابق مع الروح الخفيفة الظل والمحبة للدعابة المميزة للطبقة البرجوازية والتي كانت تسخر من مثاليات الفروسية ومن دعوة رجال الدين للزهد وتطليق متع الحياة ٠ وتتجلى هذه الروح البرجوازية في بعض أجزاء الكتاب ، وخاصة في قصيدة « المعركة بين دون كارنال وكواريسما » (وهي تقليد ساخر لعالم الفروسية المثالى) ، وفي قصيدة «استقبال القساوسة للسيد الحب » (وفيها يسخر من المحيط الكنسي ومن رجال الدين) ٠ وتجدر الاشارة هنا الى أن سخرية الشاعر وتهكمه من الواقع الاجتماعي والديني لعصره جعل رجال الدين يستصدرون حكما بسجنه في أواخر حياته ٠

واذا كان خوان رويث شاعرا ساخرا فان لديه قدرة خارقة على التقاط الواقع الحسي والنفسي للعالم المحيط به ٠ فلا يوجد من بين كتاب العصور الوسطى من لديه نفس قدرته على الملاحظة الدقيقة والمضبوطة لمشاهد الحياة اليومية والتعبير عنها بحيوية فائقة ٠ فالشاعر يتحرك فوق أرض ثابتة وصلبة ، وكتابه يعد لذلك أحد المعالم الهامة على طريق الواقعية التي بدأت في الأدب الأسباني بملحمة السيد ٠

قطرة الشاعر الجوال :

بالرغم من الثقافة الأدبية الواسعة والعميقة لخوان رويث الا أنه يميل الى استلهام الذوق الشعبي ، ولذلك فان « كتاب الحب المحمود » لا يندرج تحت مسمى التصنيف (التأليف العلمي البحت) أو التأليف النابع من منطلق فكري ذاتي وموجه لطبقة معينة ، بل انه ينضوي بالكامل تحت لواء

فن الشعراء الجوالين • فكاهن هيتا تمتزج فيه شخصية رجل الدين بشخصية الشاعر الجوال •

والعناصر الشعبية فى الكتاب تفوق الحصر ، ونذكر من بينها : الحكم والأقوال المأثورة والأمثال ، نزعة التهكم والسخرية ، المنطلق التربوى ـ الأخلاقى ، الجو العام الذى تتوالى فيه المشاهد ، الأوزان العروضية المتغيرة التى تلتزم بقافية موحدة ، وأيضا الغاية والهدف من تأليف الكتاب نفسه لأن خوان رويث كتبه ليسمعه الناس أولا ويتناقلوه فيما بينهم لا ليقرءوه وحسب • فخوان رويث لا ينظر الى الابداع الأدبى على أنه عمل خاص بل يعتبره مساهمة من جانبه فيما يمكن أن يتمخض عنه التأليف الجماعى ، ولذلك فهو يدعو جمهوره ـ وخاصة من يستطيع قرض الشعر ـ الى مشاركته بالتعديل والتغيير فيما كتبه حتى يرضى العمل كافة الأذواق • وفى هذا يقول :

أى رجل يسمعه ، لو كانت عنده ملكة الشعر

بامكانه الاضافة اليه أو التعديل فيه اذا أراد •

وبالاضافة الى ما تقدم فان خوان رويث يفعل فى خاتمة كتابه نفس ما يفعله الشعراء الجوالون عندما يقومون بطلب المقابل المادى من جمهور السامعين بعد فراغهم من الانشاد ، لكنه تذكر صفته الدينية (قسيس) واكتفى بأن يطلب من جمهوره : « الصلاة والدعاء له مكافأة على حسن صنيعه » •

ومن جهة أخرى فان الشعر الغنائى الذى كتبه خوان رويث واحتفظ الكتاب ببعضه (مثل القصائد المخصصة لمديح العذراء أو الخاصة بالريفيات اللاتى يعشن فى أعالى الجبال أو قصائد العميان والطلاب الفقراء •• الخ) يجعلنا لا نتردد فى القول بأنه يحتل قمة الشعر الغنائى الشعبى الأسبانى ، وأنه يتفوق على الشعر الغنائى الجاليقى الذى كان مسيطرا خلال القرن الثالث عشر ويكاد يقتصر على شعراء التروبادور

الذين كانوا ينشدون أشعارهم فى أوساط غير شعبية مثل القصور وبلاط الملوك . لقد جاء خوان رويث وأنزل الشعر الغنائى من عليائه ليجعل عامة الناس فى الشوارع والميادين والأسواق يتغنون به ويؤلفون على غراره .

والوزن العروضى المستخدم فى هذه القصائد الغنائية يختلف عن الوزن العروضى (الرباعيات) المستخدم فى بقية الكتاب ، ويعتبر الزجل أكثر الأوزان استخداما فى هذه القصائد .

وفى نهاية هذه الاطلالة السريعة ، يجدر أن نشير الى تأثر كتاب « الحب المحمود » بالثقافة الاسلامية العربية على أرض الأندلس ، والى عمق الصلات التى تربطه بكتاب ابن حزم « طوق الحمامة » .

ثانيا : مختارات من « كتاب الحب المحمود » (١)

يتحدث الكاهن هنا عن أهمية المرح فى حياة الانسان وعن المناظرة التى جرت بين اليونانيين والرومانيين ٠

هذه الكلمات لعالم يقال له « كاتون » :
على المرء أن يجعل من بين الاهتمامات ، التى تشغله ،
ما يبعث على الانبساط ويبهج الخاطر ،
فالحزن العميم يلد كثيرا من الآفات والمخاطر ٠

***

وبما أن العاقل لا يمكن أن يضحك هكذا دون داع ،
فقد ضمنت حديثى هذا بعض السخريات :
فعلى من يسمعها ألا يحملها على غير ما تريد ،
فما أوردتها الا بقصد الغناء والترديد ٠

***

افهم أمثولاتى جيدا ودقق فى الخلاصة ،
حتى لا يحدث معك ما جرى للعالم اليونانى
مع خصمه الرومانى الجاهل العنيد ،
عندما طلبت روما من اليونان بعض علومها ٠

***

(١) المختارات الواردة هنا مأخوذة من الطبعة الثالثة لـ « كتاب الحب المحمود » ، وهى طبعة مطابقة للأصل المدون فى القرن الرابع عشر الميلادى دون أية تحديث للنصوص أو تعليق عليها :

Arcipreste de Hita : "Libro de Buen Amor", Espasa - Calpe (Caleccion Austral)., Madrid, 1980 (16 $\frac{a}{}$ edicion).

فالرومانيون الذين لم يكن لديهم علم بالقوانين
راحوا يطلبونها من اليونانيين الذين يملكونها ،
فأجاب اليونانيون بأنهم لا يستحقونها
ولن يستطيعوا لجهلهم فهمها ٠

★★★

لكن ، اذا كانوا يريدون الاستفادة بها ،
فعليهم أولا أن يناظروا علماءها ،
ليروا مقدار فهمهم لها ومدى استحقاقهم لحملها :
لقد كان الرد بمثابة التملص والاعتذار ٠

★★★

أجاب الرومانيون بأنهم قبلوا العرض عن طيب خاطر،
وللمناظرة أبرموا اتفاقا وقعوا عليه ،
وبما أنهم لا يعرفون لغة الاغريق المهجورة ،
فقد اتفقوا على التناظر بالاشارة ٠

★★★

بعد أن ضربوا موعدا للتنافس والجدال ،
عاد الرومانيون مهمومين ، لا يدرون ماذا يصنعون ،
فلم يكونوا مثقفين ولا يستطيعون محاجة اليونانيين
العلماء أو الخوض في بحار معارفهم العميقة ٠

★★★

وبينما هم في غم وكدر أشار عليهم أحد المواطنين
بأن يتخذوا وغدا يمثلهم من بين أسافل الرومانيين :
واحدا ممن وهبهم الله الاجادة باستخدام اليد في الاشارة
فاستحسنوا الفكرة وعملوا بالمشورة ٠

★★★

ذهبوا الى وغد ضليع في السفالة والاحتيال :
قالوا له : « لقد ضربنا مع اليونانيين موعدا

للتناظر بالاشارة ، فاطلب ما تريد ،
وعلينا السمع والطاعة ، شريطةاخراجنا من هذا المأزق»

★★★

ألبسوه أفخر الثياب وأغلاها ،
كما لو كان علما في الفلسفة ومحتواها ،
صعد الى منصة عالية صائحا فى وقاحة :
« ليأت الى اليونانيون بكل ما لديهم من لجاجة » ·

★★★

أتى يونانى ، وهو أستاذ لامع ،
اختير بعناية من بينهم ، ولكل ألوان الثناء جامع ،
صعد الى المنصة الأخرى ، وسط الحشود المترقبة،
ثم آخذا فى تبادل الاشارات حسب الاتفاقية المبرمة ·

★★★

نهض اليونانى فى سكون وتؤدة ،
رفع اصبعا واحدة ، المجاورة للابهام ،
ثم عاد الى الجلوس فى نفس المكان ،
وقف الخصم ، مغاضبا ، متوثبا ·

★★★

رفع ثلاث أصابع وأشار بهم نحو اليونانى ،
الابهام واثنان اخران مضمومان ،
الثلاثة على شكل خطاف ،
وبعدها جلس الأحمق متلذذا بملابسه ·

★★★

نهض اليونانى ثانية ، وبسط راحة يده ،
جلس بعد ذلك والفكر سليم معافى ،
قام الوغد فى تبجح فارغ ،
لوح بقبضة يده : كأنه سيخوض معركة ·

★★★

لكل من كان حاضرا من اليونانيين قال عالمهم :
« يستحق الرومانيون القوانين ، لم يعد بامكاننا منعها عنهم » .
تفرقت الجموع فى سلام وسكينة :
شرف عظيم أدركته روما بفضل وغد صائع .

***

سألوا اليونانى بعد ذلك عن الذى قاله
للرومانى بالاشارة وعن رد الآخير عليه .
قال : « سألته عن ماهية الرب ، فأجابنى الرومانى
أنه واحد فى ثلاثة ، وعمل هذه الاشارة .

***

سألته عن حدود قدرته وهل تعم كل الأشياء ،
أجاب بأن المخلوقات كلها فى قبضته ، وهذا حق .
بعد أن اتضح لى فهمهم وايمانهم بالتثليث
أدركت أنهم فعلا يستحقون الفوز بالقوانين » .

***

سألوا الوغد عن غرضه وما كان يقصد :
« قال لى انه باصبع واحدة سيفقأ احدى عينى
وهذا أثار سخطى وهياجى ،
رددت عليه بغيظ وغضب وحنق ،

***

أننى سأنتزع منه ، على مرأى من الناس ومسمع ،
عينيه باصبعين ، وأحطم أسنانه بابهامى .
قال لى بعدها انه سيطير منى العقل
وبصفعة هائلة براحة يده يذهب منى السمع ،



أجبته بأنني سأوجه اليه لكمة بقبضتى
لم يسدد اليه مثلها منذ ولادته ·
ولما رأى أن موازين القوى غير متكافئة
فضل الاستسلام وأمسك عن التهديد » ·

★★★

وفى هذا تقول الحكمة على لسان عجوز محتالة :
« لا توجد حكمة قبيحة ، ما لم تؤخذ على محمل سيىء » ،
سترى كم هو جميل قولها ، اذا جمل فهمك لها :
افهم كتابى جيدا ، تفز بأنثى رشيقة ·

★ ★ ★

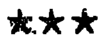
السخريات التى تسمعها هنا ، لا تنظر اليها باحتقار ،
فقد تضمنها الكتاب ليستفيد منها الشطار :
لمعرفة السوء ، والقول الحسن ، وهتك المستور
لن تجد مثلى واحدا من بين ألف من المنشدين ·

★★★

ستجد كثيرا من النوادر ، وقد يفوتك المقصود :
فالترقيع الجيد لا يقدر عليه الخياط المبتدىء ،
لا تظن آن الانشاد بعته يمكن أن يحركنى ويدفعنى ،
أو أن وصفى للحب بالجمود قد كان بلا سبب ·

★★★

الكتاب المقدس يتوجه الى الجميع ولا يخص البعض
وأصحاب العقول المنيرة يفهمون وحدهم الحكمة ويدركون
مغزاها ،
أما الغلمان الطائشون فيقنعون بالجنون ،
وبامكانك الانحياز لأى فريق باختيار ما يناسبك ·



الحب المحمود يتضمن مغازى مطمورة ،
وعليك استخراجها مستعينا بالاشارات المنثورة ،
اذا فهمت المراد أو أصبت كبد الحقيقة ،
لا تذكر الكتاب بسوء ، ولا ترجم صاحبه بغيب ٠

★ ★ ★

حين تظن أنه يكذب ، فانه يخبر عن الحقيقة ،
وما تعتقد أنه حق ربما يكمن فيه الزيف ،
الكلام يكون حسنا أو رديئا تبعا لوجهات النظر ،
فاجعل الدلائل سبيلك فى مدح أو قدح هذه المقطوعات٠

★★★

من بين كل وسائل المتعة ، أنا للكتاب قريب :
حسنا أو سيئا ، أيا كان رأيك ، عليك بتحرى الأمانة
فيما ترغب أن تقول ، وليمض كل منا الى حال سبيله ،
واذا عرفت الطريق الى ، ستحملنى دائما فى ذاكرتك ٠



الرغبة في التزاوج طبيعة يشترك فيهـا الانســان مع بقية الحيوانات :

كما يقول أرسطو ، والصدق فيما قال :
كل ذى روح يكد ويشقى من أجل هدفين لا ثالث لهما ،
الحصول على ما يلزمه من غذاء وقوت ،
وللاجتماع بأنثى لذيذة وممتعة ٠

★★★

لو كان هذا القول صادرا عنى ، لجاز لكم أن تعيبوه ،
لكنه من فيلسوف كبير ، ولن أكون أنا الذى يخالفه ،
ما يقوله العالم يجب عليكم أن تصدقوه ،
لأن التجربة برهان على سلامة ما يقول ٠

★★★

الحقيقة التى يخبر بها العالم الواقع عليها شاهد :
فالرجال والطيور والحيوانات وكل الوحوش الكواسر
ترغب ، طبقا لجبلتها ، فى صحبة دائما متجددة ،
والرجـل فى هـذا أكثر بكثير ، من كل ما يدب عـلى
الأرض ويطير ٠

★★★

أقول الرجل أكثر من بقية الكائنات الأخرى الحية :
لأنها جميعا تتلاقى فى وقت معين تلبية لنداء الغريزة ،
بينما الرجل مختل العقل فى كل حين ودون اعتدال ،
يود ويشتهى فعل هذه الحماقة ٠



النار دائما تعشق البقاء فى الرمضاء ،
وكلما ازداد اشتعالها ، تعالى تأجج الرماد :
فالرجل عندما يرتكب الخطيئة ، يدرك تماما أنه ينزلق
ومع هذا لا يبتعد عنها ، لأن الطبيعة تذكى فيه جذوتها ·

★★★

وأنا كرجل ، مثل الآخرين ، خطاء ،
قد كان لى مع النساء صولات وجولات :
تجربة المرء للأشياء ليست سيئة طالما كانت طريقا ،
لمعرفة الحسن من القبيح واختيار الأفضل ·

***

ما حدث للكاهن مع فرناندو جارثيا ، رسوله :

لن ترى عيناى النـــور
بعد أن فقدت « لاكروث » ٠

★★★

« كروث » ، فاتنة ، خبازة
أردتها لى عشـــيقة :
لكننى بدل الطريق المضمون
سلكت صراطا اليها مثلما يفعل الأندلسيون (٢) ٠

★★★

من شدة حرصى على أن تكون لى ،
طلبت من فرناندو جارثيا
أن يكون سفيرى اليها
وأن يكون لطيفا معها ٠

★★★

قال انها وافقت هواه
وجعلهـــا محظيتـــه ٠
تركنى أجتر النخالة ،
وأكل الخبز الأكثر حلاوة ٠

---

(٢) يريد الشاعر أن يقول انه بدل أن يسلك الطريق المباشر المعبد والسهل لتحقيق هدفه فى الوصال لجأ الى الوسيط مثلما كان يفعل الاندلسيون فى زمانه ٠

وعدها عملا بنصيحتى
قمحا قديما معتقا ،
أهدى اليها أرنبـا
الخائن المزيف الكاذب ٠

★★★

أخزى الله رســولا
طائشـا ومتسرعا :
لا وفق الله صائد أرانب ،
يصيدها هـكذآ متسـللا !

★★★

عندما أرى « لاكروث » ، أشعر بالخزى والهوان ،
أشير على نفسى بعلامة الصليب فى أى مكان آجدها ،
لكن الصديق القريب لازال يتبتل فى محرابها (٣) :
فمن أذى الفاتنة لم أبرأ ولم أشف الى الآن ٠

★★★

عن الطالب الشره والزميل الانتهازى
كتبت هذه الأبيات ، التى لن تكون غريبة عليكم :
فى طول أسبانيا وعرضها لم أقابل فى حياتى
من يؤلمنى هكذا ويسخر منى ٠

---

(٣) « الصديق القريب » المقصود به قلب المحب المخدوع ٠

زيارة الحب للكاهن والمشادة التي جرت بينهما :

سأحكي لكم عن الشجار ، الذى فرض على دون سـابق انذار :
وجدت رجلا ضخما ، جميلا ، وقورا أمامى
سألته من أنت ، أجابنى : « الحب ، جارك » ٠

★★★

بكل ما كان بي من غيظ أقبلت عليه معنفا :
صرخت فيه : « اذا كنت الحب كما تدعى ، فليس هـذا مكانك ،
لأنك كذاب مخادع ، وزيفك أضجر الكثيرين ،
لا يمكنك انقاذ واحد ، وباستطاعتك قتل الملايين ٠

★★★

بالخداع والنفاق والأكاذيب المعسولة
تسمم الألسن ، وترشقها بنبالك الدقيقة ،
من يخدمك بصدق ، تجرحه ، عندما تسدد سهامك ،
ومن تبغض من الرجال تبعد عنه الحبيبة ٠

★★★

أذهبت عقول الكثيرين بعلومك ومعارفك ،
جعلتهم يتركون الطعام والشراب ، ولا يزور النوم لهم جفـــونا ،

جندت الذين من الرجال يتجرعون تحت لوائك ،
حتى وهنت اجسادهم وعما قريب سيفقدون الارواح .

★★★

ليس لك قانون محدد وتفتقر الى اللياقة :
من هم فى غفلة عنك تأخذهم بغتة وتشعل فيهم نيرانك ،
واحيانا تجرب فيهم على مهل مهاراتك ،
وما أعدده لك ، تعرف أنى لا أكذب ولا أمارى فيه .

★★★

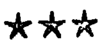
بعد ان تصطاد الرجال ، لا تقدم لهم شيئا ،
تمرر عليهم أياما وتملؤها بصنوف من الاحزان ،
توثق من يؤمن بك وتضمه الى حاشيتك ،
ومن أجل متعة يسيرة تقطع أنفاسه فى رحلة طويلة .

★★★

لدود أنت فى الخصومة ، من تعطه ضربة ،
لا ينفع معه دهان أو عقار أو شراب ،
لم أصادف قويا ولا صلبا ، عثر بك فى طريقه ،
الا وأجهزت عليه ، مهما حاول الافلات .

★★★

عن كيف توهن قوى البشر وتلحق بهم الأضرار
توجد مؤلفات عديدة ، وعن كيف تغرر بهم
بحيلك المتنوعة الغادرة وأساليبك الماكرة ،
دائما تسلبهم القوة ، موهما اياهم بانها عين البطولة .



بصحبتك يقترف الفانون دائما المعاصى :
شدة الطمع تغرر بالرجال ،
تجعلهم يتهافتون ويتجرءون ،
على تجاوز الحدود التى سنها الله للبشر .

***

لكل أنواع الآثام الطمع أصلها الأول :
فهو ابنها الأكبر ، قهرمانها ،
بيتها الرسمى وفارسها الأوحد ،
المقرض لأركان العالم ، الممسكة بالمدالة .

***

العجرفة والغضب ، غير المحتملين ،
البخل والخنا ، المتأججان مثل النار فى الهشيم ،
الشره والحسد والخمول ، التى تلتصق كالبرص :
من الطمع تولد ، وهو لها الطعم والموئل .

***

أنت لجميعها سكن ، أيها الخبيث الخائن :
بكلمات معسولة ، وايماءات خداعة ،
يعد الرجال فى الحب ويمنون بالكثير ،
وللوفاء بما وعدوا ، يغافلون الضمير .

***

يطمعون فى الممتلكات ، التى لم يربحوها ،
للوفاء بالعهود ، التى بسبب الحب قطعوها :
وبدافع الطمع يسطو كثير منهم على ما يخص الغير ،
لأنهم جعلوا اجسادهم وارواحهم تهفو اليه ٠

★★★

وفى النهاية يجزون بما سرقوا موتا طائشا ،
حيث يجرجرون الى أعواد المشانق فى مشهد عجيب ،
فى كل هذا أنت داهية ذو منخس أثيم :
من يحط الطمع فيه ، عن المعاصى يعميه ٠

★ ★ ★

بسببك أنت دمرت طروادة ،
امتدت الأيدى الى التفاحة المحرمة القطاف ٠
عندما كان « باريس » بحب « فينوس » قانعا
حرضته على ضم « هيلينا » واختطافها ٠

★★★

بسببك أيها الخبيث ، لقى رجالات مصر حتفهم ،
مشوهى الأبدان عقيمى النفوس ،
لقد حل غضب الرب على من ركنوا اليك :
ولم يبق لهم سوى النزر اليسير من الكثير الذى طمعوا فيه ٠

★★★

بالطمع يفقد المرء الخير الذى يملك ،
يهتم بجمع كل ما تصبو اليه نفسه :
لا ينال ما يطمع فيه ، ولا يبقى ما كان ممسكا بيده :
مثلما حدث للكلب ، وفيما يلى أقصه عليكم وأحكيه ،



أمثولة الكلب الذى كان يحمل قطعه لحم فى فمه .

كلب صيد كان يعبر نهرا ذات مرة
وبفمه قطعة لحم مستقرة ،
رأى فى الماء ظلا يشبهه ،
طمع فى التقاط الأخرى ، فسقط ما كان يحمله ٠

★★★

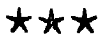
للخيال الكاذب والتطلع الفارغ
أضاع الكلب ما كان معه مضمونا ،
ما يحصل على ما أراد ، وأعماه الطمع عن الصواب ،
لقد حاول الاكثار ، ففر ما فى قبضته وطار ٠

★★★

كل يوم يحدث للطامع شىء مماثل :
حبه المفرط للتملك يفقده صوابه ،
ومن هذه النبتة السيئة يترعرع كل شر :
فالطمع اثم ومنزلق قاتل ٠

★★★

الأفضل والأحسن ، وكل ما هو أثمن ،
اذا امتلكه المرء وأصبح فى حوزته
حرام عليه التفريط فيه مقابل أمل مخادع :
فمن يترك ما باليد غالبا ما يستحيل عليه الرد ٠



الكاهن يرد على الشاكين :

الحب فى رصانة أعطانى بعد ذلك الاجابة
أيها الكاهن ، لا تكن متبرما ، أرجوك ،
لا بجد أو بهزل توخ ألا تذكر الحب بسوء ،
فالنار المتأججة يخمدها أحيانا قليل من الماء ٠

★★★

السب ولو قليلا يضيع الحب الكبير ،
ومن المشادة القصيرة تولد الضغائن الدفينة ،
وبقول غير لائق يفقد التابع سيده ،
بينما الكلم الطيب يرفع الى عنان السماء ٠

★★★

لو كنت حصيفا كما ينبغى لما عبتنى
فلا يجب أن يهدد من يريد طلب العفو ،
افتح أذنيك جيدا واستمع لصوت العقل :
اذا تماديت فى عدائى ، لن آمن عليك أبدا بامرأة ٠

★★★

اذا كنت الى الآن لم تظفر بسيدات
أو غيرهن ممن أحببت ،
فلا تلومن الا نفسك ، فأنت الذى أخطأت ،
لأنك جافيتنى ولم تأت الى طالبا النصح ٠



أردت أن تكون معلما قبل أن تكون تلميذا
ولم تعرف طريقتى لانى لم أعلمها لك ،
اذا وعيت تعاليمى ، ستتصرف بحنكة :
ستسترد السيدة ، وتعرف كيف تجلب أخريات ٠

★★★

حبك لا يصلح لجميع السيدات :
لا تحب النساء اللاتى لا يوافق هواهن هواك ،
انه حب بوار ، مصدره خبل عظيم ،
سيظل دائما تعيسا من يضع أمله فى المظنون ٠

★★★

اذا قرأت « أوفيد » ، وقد كان لى خادما
ستجد فيه وصايا ، علمته اياها ،
منها طرائق كثيرة مفيدة للعاشق :
ولتسأل « بانفيلو » و « ناسون » فهما خير شاهد ٠

★★★

اذا أردت أن تحب سيدات أو نساء أخريات ،
فهناك أمور كثيرة يجب أن تعرفها قبلها ،
ولكى تستجيب المرأة لهواك :
عليك أولا أن تحسن اختيارك لها ٠

★★★

تخير امرأة مليحة ، جميلة وناضرة ،
لا تكن طويلة جدا ، ولا مفرطة فى القصر ،
وبقدر الامكان ، ابتعد عن الفظة المنحطة ،
لأنها فى الحب جاهلة ، وفوق هذا حمقاء متكاسلة ٠



فتش عن امرأة ممشوقة القد ، صغيرة الرأس ،
جدائلها صفراء ، ليس من أثر الحناء ،
الحاجبان متباعدان ، طويلان مقوسان ،
عريضة الأرداف فى غير اسراف : هذا قوام المشوقة
الأمثل ٠

★★★

العينان واسعتان ، كحيلتان ومضيئتان ،
الأهداب طويلة ، ظاهرة وباسمة ،
الأذنان مناسبتان للرأس ، نحيفتان ، ويا حبذا لو كانت
طويلة العنق : فمثل هذه المرأة يتهافت عليها الرجال ٠

★★★

الأنف نحيل مدبب ، الأسنان صغيرة
متساوية وناصعة البياض ، متجاورة ،
اللثة شقراء ، الأسنان حادة ،
الشفتان ورديتان ، مكتنزتان ٠

★★★

الفم صغير حسن التدوير ،
الوجه أبيض ، أمرد ، أملس وصاف ،
حاول أن ترى المرأة بلا عباءة ،
وسيكشف لك قدها عن كل هذه الأوصاف ٠

★★★

ولتكن سفيرتك اليها من ذوى قرابتك ،
ويجب أن تكون لك وفية ، لا خادمة لها ،
مستحيل ألا يندم من على دخل يتزوج ،



احرص بقدر المستطاع على أن تكون رسولتك
عاقلة ، فطنة ، وذات خبرة ،
قادرة على نسج الأكاذيب اللطيفة ، والسير قدما حتى
النهاية ،
لأن القدر مهما غلت لا يتحرك فيها الا الغطاء •

★ ★ ★

اذا لم تكن لك قريبة بهذه المواصفات ، فابحث عن احدى
العجائز
اللاتى يرتدن الكنائس ويعرفن الشوارع والحارات :
انهن يحفظن كثيرا من الحكايات ، ويعرفن المداخل
والمبررات ،
وعندهن من سحر موسى ما يفتن الآذان ويحرك الغرائز •

★★★

انهن معلمات متمرسات أولئك العجائز الثرثارات ،
يطفن بكل الأنحاء ، من ميادين أو مرتفعات ،
الى الله يرفعن الأكف ، شاكيات باكيات :
آى ، كم من الخبائث يعرفن هؤلاء العجائز الخبيثات !

★★★

أو اتخذ واحدة من العجائز اللاتى يشتغلن بالعطارة
ممن يترددن على البيوت ، ويزعمن أنهن قابلات ،
فهن يحملن المساحيق والمكاحل وكل أنواع الدهونات ،
يرمقن الفتاة بنظرة فيعمين منها الحس والمدركات ••

★★★

أو ابحث عن سفيرة من بين الزنجيات الوادعات
ممن يستخدم الرهبان ، الراهبات والصالحات :

فهن مشاءات جيدات وبالأحذية جديرات ،
هؤلاء القوادات يرخصن الغاليات ٠

★★★

حيث يمضى هؤلاء النسوة تعم الفرحة والبهجة :
فقليل من السيدات يستطيع منهن الافلات ،
ولكى لا يكذبن عليك اعرف كيف تداهنهن ،
فهذا الطريق يسلك ، من يعرف السيطرة عليهن ٠

★★★

ومن بين ما تقدم من عجائز هذه انفعهن :
من تقنعها بالا تغرر بك ، مظهرا لها حبك الخالص :
فالحيوان العاطب يبيعه السمسار الماهر
والملابس الرديئة تختفى وراء الاغطية الحسان ٠

★★★

لو أخبرتك ان السيدة ليست كبيرة الأعضاء
ولا نحيلة الذراعين ، اسألها عن النهدين
اذا كانا صغيرين ، لو قالت نعم ، تابع الاستفسار
عن بقية الأشياء ، لانك على جادة الطريق تسير ٠

★★★

لو قالت ان ما تحت الابطين مبتل قليلا
وان ساقيها قصيرتان وطويلة الأضلاع ،
عريضة الأرداف ، القدمان صغيرتان مقعرتان
هذه المرآة لا تجد لها شبيها فى كافة الأسواق ٠



فهى فى الحب مجنونة ، وفى البيت عاقلة رصينة
لا تنس هذه السيدة ، واجعلها فى مخيلتك ماثلة :
حتى لا يحل بك ما حل بأوفيد من عقاب ،
فتضيع منك ولا تجر الحسرة عليها سوى العذاب ٠

★★★

لم أكشف لك حتى الآن عن آمور ثلاثة :
انها عيوب مستورة وآفاتها غاية فى الخطورة ،
قليلات من النساء من يبادلنك وفاء بوفاء ،
لو كان هذا القول لى ، لشرعتم فى الضحك لحد الاغماء ٠

★★★

احرص على ألا تكون ملتحية أو مشعرة
فجهنم ذاتها تعاف استقبال مثلها !
اذا كانت ذراعاها قصيرتين ، نحيلتين ، والصوت حادا ،
هذه المرأة تقتضى الحكمة تبديلها ٠

★★★

وفى نهاية الاستفسارات لا تنس معرفة الباقى منها :
اذا كانت امرأة طروبا ، فى محراب الحب متبتلة ،
عاطفتها مشبوبة ، وتطلب من رجلها كل ما يأتى على بالها ،
لو قالت نعم : فهذه المرأة من الصواب أن تبنى بها ٠

★★★

انها تستحق البذل ، جديرة بالتعلق والهوى :
فهى أكثر من الأخريات متعة فى الحديث والمعاشرة ،
اذا عرفت هذا عنها وأردت امتلاكها ،
فاجتهد فى افتتانها بعذب الحديث والعمل من أجلها ٠



من جواهرك الجميلة أغدق عليها قدر ما تستطيع
اذا كنت لا تريد اعطاءها ، أو ليس عندك ما تهبه لها
فعليك بالاسراف فى الوعود ، وليشتد النطق اذا لم
يسعف الموجود
لأنها بعد أن تغلف بالأمانى ، ستنفذ ما تطلب وتريد .

★★★

لا تبخل عليها ، ولا تغضب منها ، فالحب بالبذل يربو
ويزيد
والخدمة فيما ينفع ويفيد لا تموت أبدا ولا تبيد ،
اذا تأخرت ثمرتها، لا تضيع، والحب يخبو لكنه لا يتبخر
والعمل الدؤوب المتواصل دائما على كل العوائق ينتصر .

★★★

ما تفعله لك أكثر فيه المديح والثناء
أعطه أكثر مما يستحق وبالغ فى الاطراء ،
ولا تزدر أو تسخر مما تطلبه منك وتريد ،
ولا تعارض لها قولا وتلح فيما يغضب ولا يفيد .

★★★

لا تمل من مراودة من تهوى كثيرا وتحب ،
عندما تواتيك الفرصة انزع لباس الخوف ،
لا يمنعنك الخجل حيثما تواجدتما معا ،
ولا تكن كسولا فى حضرة جارة جميلة .

★★★

عندما تلاحظ المرأة كسل الرجل وجبنه ،
تقول من بين أسنانها : «يا خيبتى ، لا فائدة منه !» .

مع امرأة لا تكبح جماح نفســك ، ولا تلتف في معطف
أو عباءة
بل اجعل من لباسك الخفيف خدعة وتكتيكا ٠



الخوف ، الجبن ، الغباء والخسة ،
القذارة والحقارة ، علامات للتراخي وأخوات ٠
بسبب الكسل فقد الكثيرون صحبتي ،
وبه تضيع امرأة باهرة الصفات ٠

★★★

العجوز والفتاة

لكى أنسى همى ، وما بى من حزن وأوجاع
رجوت عجوزتى تحقيق رغبتى فى الوصال ٠
تحدثت مع فتاة مسالمة ، فلم ترد السماع :
تصرفت هى بحكمة ، وتركتنى للنواح ٠

★★★

قالت القوادة للفتاة نيابة عنى :
« يا صديقتى ، يا صديقتى ! كم من الوقت مضى ولم
أسعد برؤياك !
لم أنت هكذا ؟ لم يعد بمقدور أحد أن يلقاك ،
يرسل اليك بتحياته حب جديد » ٠ ردت الفتاة :
« لا يعنينى » ٠

★★★

« يا بنتى ، واحد من القلعة أسره هواك ،
يبعث لك ثوبا مع هذه البراءة ٠
متعك الله بالخير ، وكثير من هذا عندنا :
خذى ، يا بنتى العزيزة » ٠ قالت الفتاة : «لا والله!» ٠

★★★

« يابنتى ، آنعم الله عليك بالصحة وراحة البال !
لا تزدريها ، ففير هذا لم أستطع الاحضار ،
فهيا ابتهجى ، وغنى لى على العود بالجواب ،
فلن أنصرف من عندك خالية الوفاض » • قالت الفتاة :
« اسكتى ! » •

***

بعد أن تأكدت العجوز من خيبة مسعاها
أضافت : «لقد تحدثت كثيرا، وأضعت وقتى فى الكلام،
وبما أنك لم تستجيبى الى ، فلا يطيب لى المقام » •
هزت الفتاة رأسها وقالت : « اليك عنى ، اليك عنى »•

***

أنشـــودة جبلية :

بالقرب من « تابالدا » ،
على الطرف الآخر للجبل ،
تقابلت مع « ألدا »
وقت الســـحر ؛

★★★

وأنا أعبر الجبل
أشرفت عـــلى الهلاك
من الثلج والبرودة
والطـــل الـــكثيف
وشـــدة الصقيع ۰

★★★

حزمت أمرى ساعتها
أطلقت ساقى للريح
التقيت بجبليـــة
جميلة ، مفعمة بالحيوية ،
حلـــوة ، خمـــرية ۰

★★★

ناديت عليهـــا :
« أدركينى ، أيتها الحسناء » ۰

ـ قالت : « أنت ، يا من تحسن العدو ،
لا تلق هنا بمرساك
وغذ السير الى مبتغاك » •

***

ـ قلت لها : « هدني البرد
ولهـــذا عرجت
عليكم ، يا سلطانة الجمال :
كي تتفضلوا على اليــوم
باعطائي محلا للاقامة » •

***

ردت الفتاة عــلى :
« يابن العم ، هذا كوخي
من ينزل فيــه ،
يتزوج بي ،
ويعطيني الأجر » •

***

ـ أجبتها : « كان بودي ،
لــكنني متزوج
هنا في « فيريروس » ،
ومن جهة المــال
سأعطيك دون سؤال » •

***

ـ قالت : « تعال معي » •
أخــذتني معهــا ،
أوقدت لي نارا جيدة ،

كمـــا هى العـــادة
فى الجبال المثلجة ·

★★★

قدمت لى خبزا من السلت
أسود ، مهببا ،
ونبيذا رديئـــا ،
حامضـــا خفيفا ·
ولحمـــا مملحـــا ·

★★★

وجبن أغنـــام ،
ثم أردفت : « يابن الأصول
افتح هذه العلبة ، تناول
حصوة من الجريش ،
حفظتهـــا فيهـــا ·

★★★

تغذ ، حضرتك ،
اشرب وتقو ،
استدفىء وادفـــع :
لا أمســـك بسوء
لحين عـــودتك ·

★★★

من يعطنى عن طيب خاطر ،
ما أطلب وأريد ،
يستمتع بعشاء فاخر

وبفراش وثير
لا يكلف الكثير » ٠

★★★

ــ « أنت ، التى تقررين
فلماذا لا تطلبين
الشيء المحدد المعقول ؟ » ٠
ــ ردت : « اذا كان الأمر كما تقول
فما أقرب المأمول ! » ٠

★★★

أعطنى اذن شريطا
أحمر ، صبعة مضمونة ،
وقميصا ملــونا
على ذوقى معدا ،
وعليه قلادته ٠

★★★

أعطنى سلاسل أصيلة
من القصدير وطويلة ،
وأتحفنى بحليــة
عظيمــة القيمــة ،
وبجلد مدبوغ رقيق ٠

★★★

قــدم لى خمــارا
مخططا على الصدر وجميلا ،
أعطنى حـــذاء ،
أحمر وطــويلا ،
مزينــا ومشــغولا ٠

★★★

بتلك الجـواهر
التى علَى سمعك أوردتها ،
ستنزل على الرحب والسعة :
تصبح لى حبيبا
وأسهر أنا على راحتك » .

★★★

ـ « سيدتى ، يابنة الجبل
أشياء كثيرة الآن
لا أحمل لسوء طالعى ،
وسأوافيك بهـا
بعـد عودتى » .

★★★

أجابتني الكريهة :
« اذا لم توجد النقود
لا توجـد بضـاعة
ولا نهار طيب سـعيد
ولا ابتسامة مدفوعة

★★★

التـاجر المـاهر
ماله دائما حاضر
وأنا لا أبيع بالأجل
لمن لا يملك الثمن
وليس له عندى سكن

★★★

الخدمات الفندقية
لا تقدم ، أبدا ، كرما وبالمجان ،
كل الرغبات بالمال
يستطيع تحقيقها الرجال :
هذا أمر لا يحتاج الى أدلة » ٠

***

المـاركيـز دى سانتـيانا

(EL MARQUSE DE SANTILLANA)

١٣٩٨ - ١٤٥٨

أولا : تعريف موجز بالشاعر

ولد « دون انييجو لويث دى ميندوثا » ـ الشهير بالماركيز دى سانتيانا ـ عام ١٣٩٨ ، وتوفى سنة ١٤٥٨ ·

وشخصية شاعرنا من أصدق الشخصيات تجسيدا لروح وثقافة القرن الخامس عشر (الذى يعتبر بمثابة مقدمة أو مدخل لعصر النهضة الأسبانى) ، لأنها تجمع بين الانتساب للطبقة الأرستقراطية والاشتغال بالسياسة والحرب وبين الاهتمام بقرض الشعر ودراسة الكتاب الكلاسيكيين (الاغريق واللاتينيين) · ولقد ساهم الماركيز فى اذكاء الفوضى السياسية فى عصره ، وخير دليل على هذا أنه شن حربا ضروسا ضد مليكه (دون خوان الثانى) ثم تحالف معه بعدها وأعانه فى كثير من الأزمات الحربية ، كما أنه لم يكف عن محاربة المسلمين ·

وبالرغم من انهماكه فى الصراعات الدامية التى شهدها عصره الا أنه تمكن من توفير الوقت الكافى لاشباع نهمه الأدبى بالاطلاع والتأليف وقرض الشعر ، كما أنه استطاع أن يزود مكتبته الخاصة بالمئات من أمهات الكتب ، وأن يشجع الباحثين فى مجال الدراسات الانسانية ، وأن يوجه المترجمين لترجمة بعض أعمال أفلاطون و « فرجيل » و « أوفيد » و « سنيكا » ·

وتعتبر المقدمة النثرية التى كتبها لأشعاره أول بحث نقدى فى اللغة الأسبانية · وقد ضمنها خلاصة قراءاته فى الأدب الأسبانى والجاليقى والقطلونى والفرنسى والايطالى كما عرض فيها رؤيته الخاصة بالشعر ووظيفته ··

وطبقا لهذه الرؤية ، فان الشعر عنده عبارة عن « عرض أشياء نافعة مستورة أو مغطاة بغلاف فائق الجمال » . وهذه النظرة تنسجم تماما مع أيديولوجية العصر الوسيط التى تعتبر الشكل اللغوى عنصرا ثانويا بالنسبة للهدف التربوى ــ التعليمى .. ومن جهة أخرى ، فان طبيعية الأرستقراطية جعلته يعاف ويأنف مما ينتجه الالهام الشعبى (الأدب الجماعى) اذ كان يعتبره شيئا خاصا « بالدهماء ، أصحاب الذوق المتخلف الذين لم ينالوا حظا من الثقافة » .

أما أعماله الشعرية فيمكن تقسيمها الى ثلاثة أقسام : أشعار التروبادور . الأشعار ذات التأثير الايطالى ، والأشعار التربوية ــ الأخلاقية .

ــ وتضم أشعار القسم الأول (التروبادور) مجموعة من « الأغانى والأقوال المأثورة » ، بالاضافة الى عشر «قصائد رعوية» . وقد تأثر الشاعر فيها بشعراء التروبادور البروفانسيين من خلال اتصاله بالأدب الجاليقى .

وأشعار هذا القسم ــ وخاصة القصائد الرعوية ــ تعتبر من أفضل ما كتبه الشاعر لملاحتها وموسيقاها العذبة ولأوزانها العروضية الخفيفة .

ــ أما قصائد القسم الثانى ذات التأثير الايطالى فتضم عددا من القصائد الطويلة التى يحاكى فيها الايطالى «دانتى» ، بالاضافة الى بعض القصائد الرمزية أو المجازية ، والى ٤٢ أرجوزة (سونيت) يقلد فيها الايطالى « بترارك » (النموذج الأوحد لكل الشعراء الأسبان فى القرن الخامس عشر) . لكن قصائد هذا القسم ثقيلة ومتجهمة لأنها محملة بالكثير من الأفكار الفلسفية ، كما أنها تفتقد الى التوازن والتناغم (السمتان البارزتان فى أشعار دانتى وبترارك) .

ـ وفى الأشعار التربوية ـ الأخلاقية (القسم الثالث) يحاول الماركيز دى سانتيانا الربط بين العقيدة المسيحية وبين أفكار وآراء الأقدمين أمثال أرسطو وأفلاطون وفيرجيل وأوفيد ... الخ .

وأشعار هذا القسم وان كانت لا تستهوى أحدا فى عالم اليوم الا أن صاحبها اكتسب بفضلها ـ حال حياته ـ شهرة واسعة ككاتب أخلاقى .

ثانيا : نماذج من شعر الماركيز دى سانتيانا

(قصيدة رعوية)

لم أشاهد على الحدود
فتاة رائعة الجمال
مثل راعية أبقار
(بلدة) فينوخوسا .

★★★

وأنا أسـير
من قلمـة رباح
الى سانتا ماريا ،
غلبنى النعـاس
فى أرض وعرة ،
ضـللت الطـريق
فشاهدت راعية أبقار
فينوخوسـا .

★★★

فى مرج أخضر
من الورد والأزهار ،
وهى تحرس القطعان
مع رعاة آخرين ،

رأيتها شديدة الملاحة
فلم أكد أصـدق
أن تكون راعيـة أبقار
فينوخوسـا ٠

★★★

لا أظن أن ورود
الربيـع
تكون شديدة الحسن والبهاء
ولا بمثل ما هى عليه من جمال
ـ ولا أبالغ فيما أقول ـ
لو قبل ذلك رأت عيناى
راعيـة أبقـار
فينوخوسـا ٠

★★★

لم أتمل كثيرا
فتنتهـا الطاغيـة
حتى لا تسـلب منى
الرشـد والحـرية ٠
لكنني ناديت : يا مليحة
ـ لمعرفتى من تكون ـ
أخبرينى ، بالله عليك ،
أين أجد راعية أبقار
فينوخوسـا ٠

★★★

ردت وعلى شفتيها مشروع
ابتسامة : يالك من مراوغ !

لقد أدركت الآن
ما تسعى وراءه ،
ليست الى الحب
تواقة ، ولا فيه راغبة ،
راعيـــة أبقـــار
فينوخوســـا .

★★★

أرجوزة (سونيت)

مثلما تراءت « لابينا » اللطيفة
في معابد « لاورنثيا » الشريفة ،
مثلما احتفى ب « ايرتينيا »
أناسها بكل ما لديهم من حماسة ،

★★★

ومثلما تبدو زهرة القرنفل
في حدائق « فلورنسا » البليلة
رأت عيناى فى ألق سماوى
صورتكم وطلعتكم الأثيرة .

★★★

عندما أصاب القرح والجرح المميت
صدرى بسهم الحب النافذ ،
الذى يقتلنى فجأة ويحيينى ،
يسعدنى ، يسرنى ويشقينى :

---

(١) طبقا لما ورد فى « الانيادة » فان الاميرة الجميلة « لابينا » (Lavina) ظهرت فى معابد « لاورنثيا » والنار تحيط بها من كل جانب (وسط هالة من نار) .

مبتهجا أتحمل الألم غير المستحق
مكتويا بالنار ، أجدني في راحة

★★★

أغنيـــة :

اذكريني ، ولا تنسى حياتى
فقــد أبصرت
رحيلى وانســحابى
الأشد حزنا ولوعة .

ـ ١ ـ

تذكرى أننى اعانى
وعانيت كثيرا
آلاما لا أستحقها ،
منــذ ان صــدمت
بالجــواب المتعنت
الذى أعطيتنى ،
وبسببه كان وداعى
أشد حزنا ولوعة .

ـ ٢ ـ

لكن لا تمتقدى ، يا سيدتى ،
أننى لهـــــذا
كنت بك أو أكون الآن
أقل هوى وتعلقا :
برغم القرح الحقيقى
الذى به أصبتنى ،
لذا كان وداعى
أشد حزنا ولوعة .

أغنيـــة :

مقولة خاطئة تلك التى تدعى :
أن البعيد عن العين ،
بعيد أيضا عن القلب ٠

ـ ١ ـ

فأنا أقسم لك ، يا سيدتى ،
أننى كلما بعدت عنك أكثر
أحببتك بصـــدق
وتمنيتك فى كل وقت ٠
وكل هـــذا الود
لا دخل فيه للعين
بل للقلب الوفى ٠

ـ ٢ ـ

ابتعدى قدر ما تستطيعين ،
فلن يستطيع البعاد
ولن يكون فى مقدورك أبدا
طمس طريقى اليك ٠
لو استطعت الفرار
من مدى عينى الحزينتين
سيعثر قلبى عليك ٠

ـ ٣

لكن لا يمكن الانكار ،
برغم عدم قدرتى على النسيان ،
الألم الذى يصيب الوجدان
لحرمان العين من النظر اليك ٠

ولذا أقول دون ارتياب :
ان رؤيتى لك لا حاجة لها بالعينين
لأنك فى القلب الحنون ماثلة ٠

إلى عذراء جوادالوبى

عذراء ، أم يسوع
الخالدة ، الخالق البارىء
تعهدك بالتربية ، لخلاص
هذه الحياة المثقلة بالهموم ،
للبستان المقدس أنت وردة ،
وأقحوانه رائعــة ،
ينبوع للماء المبارك ،
بريق لهبات لا محدودة
بيد الاله مخطوطة ،
آه ، أيتها المجيدة !

فائقة الوصف ، أشد جمالاً
من أجمل الجميلات ،
كنز لأشياء مقدسة ،
زهرة ، زنبقة بيضاء ،
فياضة ، معطاءة ،
كاملة الاحســـان ،
راحة لتواضع جم ،
انسانية طاغيــة ،
ســـلاح للمسيحية
في أى ساعة عصيبة ٠
حقول زيتون خصبة فسيحة
فى أراضى سيون (فلسطين) ،
حكمــة ســليمان ،
ذات أصول عريقة ،

حجر شرقى كريم ،
توباز لمنجم حقيقى ،
قديســـة منتخبـة
فى الحضرة الالهية ،
لها السماء تنحنى ،
كأنها ملكة قاهرة ·

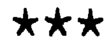
صـفاؤك الوضـاح
طيبـة وبشاشـة ،
هدوء وسكينة ،
حياة عفيفة ، تقية ،
الحـــكم القاسى ،
الصادر عـلى المرأة
لتمكن ابليس منها ،
تحول الى النقيض ،
هل كان بامكان غيرها
تحقيق هذا العمل الأشد روعة ؟

للملوك أنت نجمة مشعة
وطريقك القـويم ،
عيـــد للقيـامة ،
مكتبة زاخـرة ،
نصوص كتابات عظيمة ،
تاريخ للأنبياء ،
ترس لحرابنـا ،
كمـال للكاملات ،
ولكل المصطفيات
امبراطورة شجاعة ·

أيها الضوء السماوى الساطع ،
يا شمس جوادالوبى الجديدة ،
معذرة ، اذا لم يستطع لسانى المتعثر

أن يجود بالمزيد ٠
فلا أحد ممن أوتي الفصاحة
من بين بلغائنا الأقدمين ،
قديسون وعلماء عارفون ،
قد وفاك حقك
عند التغني بفضائلك ،
شعرا كان هذا أم نثرا ٠

أيتها المظفرة ، نصيرة
الضعفاء والمضطهدين ،
ملاذ الخطائين ،
مسكنة كل الآلام ،
الى هنا تنتهي كلماتي ،
أيتها الأم الرحيمة ٠



خورخي مانريكي

(JORGE MANRIQUE)

١٤٧٩ - ١٤٤٠

أولا : التعريف بالشاعر

« خورخي مانريكي » (Jorge Manrique) ، هو ابن الكونت « دون رودريجو مانريكي » ، قائد رهبانية سنتياجو (شانت ياقب) العسكرية ، الذى كان رجلا محاربا من الطراز الأول ، فقد خاض أكثر من خمسين معركة الا أن الموت داهمه وهو على فراشه في مدينة أوكانيا (Ocena) ـ وهي من أعمال مدينة طليطلة ـ عام ١٤٧٦ • أما شاعرنا (خورخي) فقد ولد ـ على الأغلب ـ سنة ١٤٤٠ في « باريدس دي نابا » (Paredes de Nava) (بالنثيا) ، ومات ميتة بطولية أمام قلعة « جارثي مونبوث » عام ١٤٧٩ ، وهو يدافع عن الملكة ايزابيل الكاثوليكية •

وحياة « خورخي » القصيرة مليئة بالأحداث المثيرة بحكم ارتباط حياة والده بالفتن السياسية والصراعات العسكرية في عصره والتى سرعان ما شارك الابن فيها •

ولقد شاهد خورخي عن قرب ما يحاك من دسائس ومؤامرات دامية في بلاطات ثلاثة ملوك قشتاليين ، حيث عاصر أفول نجم دون خوان الثاني ، ورأى رأى العين ما كان يغص به بلاط هذا الملك من حفلات وصخب وأبهة وفخامة الى جوار الدسائس والحروب والمكائد • وهو يتذكر كل هذا في قصيدة الرثاء الطويلة التى ألفها بمناسبة موت والده •

وبعد موت الملك خوان الثاني ، أفنى خورخي زهرة شبابه (حوالى عشرين عاما) في خدمة خليفته : الملك انريكي الرابع • كما عاصر الشاعر المؤامرات التى أطاحت

بهذا الملك وتنصيب الأمير « ألونسو » ــ ولم يكن قد تجاوز أحد عشر عاما ــ خليفة له ·

وفي نهاية حياته انضوى تحت لواء الملكة ايزابيل الكاثوليكية الى أن مات وهو يدافع عنها ·

وبرغم هذه الحياة القلقة المضطربة والجادة فقد كان خورخي شاعرا موهوبا وان كان انغماسه في الأحداث الدامية لعصره وموته المبكر لم يمكناه من صقل وتعميق تجربته الشعرية بكثرة الاطلاع ومداومة التأليف · ومن هنا يمكن أن نفسر قلة ما تركه لنا من قصائد ، فهو شاعر أرستقراطي أراد أن يضيف الى مجد السيف فخار الانتساب لمملكة الشعر، ولم يكن لديه من وسيلة لتحقيق ذلك سوى موهبة بكر وأوقات فراغ محدودة ·

وهو شاعر حسي ، يعشق الألوان والضوء · والطبيعة بعناصرها المختلفة ليست لها أهمية في شعره ، وعندما يلجأ الى بعض مكوناتها (مثل البحر ، السماء ، الأرض · الخ) يكون فقط بقصد تجسيد عواطفه ·

« وتيمات » شعره الرئيسية تنحصر في الغزل والهجاء والرثاء والحرب ، والحب عنده قاس لا يعرف الشفقة وعواقبه وخيمة مثل الحرب ، ولذلك يكثر فيه النواح والتعبيرات الأسيانة ·

وشعره وان كان يخلو أغلبه من التأملات الفلسفية أو الأفكار العميقة الا أنه بعيد عن الصنعة والتكلف ، وينساب في تلقائية وعفوية تزيد من وقعها الموسيقى العذبة لأوزانه العروضية ، ولغته مضمخة بصور شعرية جميلة ·

وأهم ما تركه لنا خورخي يتمثل في المقطوعات الشعرية التي كتبها في رثاء والده · وبفضل القيمة العاطفية المكثفة لتلك المقطوعات وبساطة وخطورة مضمونها ، فقد حظيت

منذ القرن الخامس عشر بشهرة واسعة وترجمت الى كل لغات العالم الحية . والبعض يعتبرها من أحسن القصائد في الشعر الأسباني خلال العصر الوسيط . وهذه المقطوعات تحرك مشاعرنا لأنها تتحدث عن حقائق أزلية وخالدة بكلمات بسيطة ومعبرة . فهي تتحدث عن فناء وزوال كل ما هو أرضي ، وعن الموت الذى لا يعلن عن قدومه ويصهر الجميع في بوتقته دون محاباة أو تمييز ، وعن ضرورة عدم الاغترار بزيف الحياة ومتعها لأنها لا تدوم لأحد والعاقل فيها من يحسن الغرس لآخرته . فالحياة ليست دار سكنى ومقام ، وملذاتها تخمد سريعا وتذبل مثل الخضروات فى البيادر ، وتنقشع مثل قطرات الندى فى المروج ، ولا يبقى بعد زوالها الا الحسرة . ولذلك ننظر دائما بعين الأسى تجاه ما مضى ونتمنى عودته :

« وكيف يبدو لنا / جمال / كل وقت فات واندثر » .

وبعد أن يذكرنا الشاعر بهذه الحقائق يستحضر الأحداث المختلفة لتأكيدها . لكنه لا يعمد الى أحداث ووقائع جرت في أزمنة غابرة ، بل يختار أمثلة شاهدها الناس فى عصره لكى يزداد تأثرهم واعتبارهم ، مثل الحديث عن الملك دون خوان وعن بلاطه الذى كان يعج بالشعراء والأبطال والفاتنات الحسان ، أو عن الملك دون انريكى بجبروته وسطوته ، أو عن أمراء « أراجون » بأملاكهم الشاسعة وثرواتهم الهائلة أو عن قائدى الرهبانيتين العسكريتين لسنتياجو وقلعة رباح بنفوذهما الكبير وقدراتهما الحربية الرهيبة ... الخ .

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك الى الحديث عن والده ويعدد مناقبه ، ويشبهه ـ فى الفضائل ـ بخمس عشرة شخصية اغريقية ولاتينية عظيمة كان كل منها رمزا لفضيلة معينة .

والموضوعات والأفكار التى تتناولها هذه المقطوعات الرثائية (فكرة زوال الحياة ومتعها ، وسطوة الموت التى

لا تفرق بين عظيم وحقير ، واستحضار ما جرى للمدائن العامرة والرجال الأقوياء ولمظاهر الأبهة والثراء .. الخ) قديمة قدم الحياة ذاتها ، وهى بمثابة القاسم المشترك فى التراث الانسانى كافة ، لكن ردود افعال الادباء والفنانين ورجال الأخلاق تجاهها لا تسير على وتيرة واحدة فى كل العصور . وعلى سبيل المثال ، فان المجتمع الغربى لا يطرق حاليا هذه الموضوعات بكثرة وحدة وانفعال مثلما يحدث فى مجتمعات آخرى معاصرة ، بل انه لا يعالجها بنفس القدر وبنفس الحماس الذى كان يعالجها به فى القرون الماضية .

فماذا كانت ردود أفعال المجتمعات الأوربية فى القرن الخامس عشر تجاه هذه الموضوعات ، وما هو الجديد فى طرح خورخى مانريكى لها فى مقطوعاته ؟

كما ذكرنا ، فان فكرة فناء الحياة الدنيا وزوال متعها وتربص الموت بكل ما هو حى قد تناولها الأقدمون ، لكنها كانت أكثر الحاحا وتكرارا فى العصور الوسطى الأوربية أكثر من آى عصر مضى .. كما آن الحديث عنها خلال العصر الأوربى الوسيط كان يتشح بسواد وكآبة وتجهم وقتامة توهن الأعصاب . فكثيرا ما كان يتحدث فى هذا العصر وبحماس مفعم بالألم والخوف عن صورة الجسد الذى يتحول الى تراب ، وعن الاقطاعيات والعروش التى تتهاوى فى غير رحمة بمعاول الفناء والدمار ، وعن الجمال الذى ينخر فى عظامه الدود . وتسللت هذه الصور الكئيبة الى روح العصر الوسيط مثل الخدر المعدى الرهيب ، وتوهجت ردود الأفعال واشتدت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر وجسدها الرسامون والنحاتون والشعراء ورجال الدين .. لكن مرثية «خورخى مانريكى» تبتعد عن التعبيرات الكريهة ، وعن الصور المتجهمة الكئيبة والقاسية للموت ، وتتجه الى ابراز آسبقية ما هو خالد من البطولات والمآثر دون أن يمنعها هذا من استحضار الأشياء التى ذهبت ولن تعود من خلال عاطفة رصينة وعميقة .

فشاعرنا لا يحقر المواهب والملكات الانسانية السامية بل يمتدحها ويثنى عليها • كما أن استحضاره لما كانت تموج به بلاطات الملوك من شعر وموسيقى عذبه وملابس وعطور وجمال وخزائن وابهة قد خفف الى أقصى درجة من قسوة المناسبة وكآبتها •

فالموت فى مقطوعات خورخى ليس كريها او بشعا لان والده بعد أن انتهت حياته الدنيا (الحياة الأولى . كما يطلق عليها) لا يزال حيا فى ذاكرة أهله ومعاصريه فيما تركه من ماثر وبطولات (الحياة الثانيه) ، وهو بعد موته ستصعد روحه الى الجنة للاستمتاع بالحياة اللانهائية (الحيـاة الثالثة) • والكلمات التى كتبت وقتها على شاهد قبر أبيه تشير الى هذا المفهوم :

هنا يرقد ميتا الرجل
الذى بقى اسمه حيا •

ولهذه الأبعاد الجديدة التى اضافتها مرثية خورخى لما كان متداولا وسائدا فى القرون الوسطى عن فكرة زوال الحياة وسطوة الموت الغاشم قد جعلت بعض النقاد يقيمونها على أساس أنها مقدمات أو ارهاصات لمفاهيم عصر النهضة الأوربى ، لكن الدرس الأخلاقى ـ التربوى الذى يغلف التأمل العاطفى المشبوب فى المرثية (والبعيد كل البعد عن بهجة التلذذ بمتع الحياة والانغماس فيها ، والتى ستكون احدى المقومات الفكرية والفلسفية لعصر النهضة فيما بعد) يضعها بالكامل داخل الاطار العام لفكر العصور الوسطى وفلسفتها •

ثانيا : مختارات من شعر خورخي مانريكي (۱)

دون خورخي مانريكي يشكو من اله الحب ويتجـه معـه

(۱)

آه منك ، يا اله الحب العالى ،
يا من حياتى به تهتدى !
كيف تسمح ، يا سيدى ،
وأنت الحكم العـدل
بمثل هذه الهرطقات فى شريعتك ؟
بأن يضل من عبـد ،
ويطوى النسيان طاعته ،
بأن يحيا من خدع ،
ويموت من يصدق أحب ،
ويصبح الهوى الكذاب له ثمن ؟

(۲)

وبما أنك راض عن حدوث
مثـل هـذه الترهات ،

(۱) المختارات الواردة هنا ماخوذة من الطبعة التالية لاعمـال خـورخى مانريكى الكاملة :
Jorge Manrique : « Obra Completa », (dirigiday prologada por Augusto Cortina). Espasa-Calpe, Madrid, 1979 (13 a edicoin).

أرجـوك أن تغفر
للسانى ، اذا دفعه الألم
أن يذكرك بســوء ·
لست أنا الذى يتكلم ،
بل أنت ، الذى كعدو
عاملتنى :
بعد أن اتخذتك صديقا
سرعان ما حولتنى وبعتنى ·

(٣)

اذا كنت الها بحق ،
فلماذا تقبل الأكاذيب ؟
ان كانت فى قلبك ذرة من عطف ،
فلماذا توافق على هذا الشر ؟
أو بماذا يعود عليك غضبك
وســـخطك الرهيب
اللذان تعاقب بهما وتجرح ؟
قواك الهــائلة
ــ وأنت تئن تحت وطأة الأعاجيب ــ
أخبرنى ، الى متى تدخرها ؟

(٤)

(رد اله الحب)
أيها العاشق : تعلم أن الغياب
قد اتهمك وأدانك ،
ولو كان الأمر قد تم فى حضورك ،
لمــا صــدر الحـكم
الظالم الذى أصابك ،
لا تظن أننى ســعدت

بما حل بك من عقاب ،
فقد أدركت جيدا
انني خسرت فيما ضاع
وما كسبته منه هباء ٠

(٥)

(اجابة المبتلى) :
يا لها من بداية بليغة ،
وأية عدالة تلك
التى تدين الغائب
دون سماعه او دعوته للمثول
لا هو ولا وكيله !
وهكذا لكى تبرر فعلتك ،
فان ما تقدمه كعذر ،
وما تتفوه به لتبرئة نفسك
ليس الا دليلا على ادانتك
لأنه هو نفسه الباعث على اتهامك ٠

(٦)

(اله الحب يجيب) :
هدىء من روعك ،
تعقل ولو قليلا ،
لا تعط الفرصة
لحيرتك الكبيرة
كى تفضى بك الى الجنون ،
ولحسن الحظ يمكنك الاستئناف ،
فهناك اله آخر أعلى منى وأعظم
بوسعه أن يداويك ،
وأن يعاقبنى أيضا
ان كنت ضللت الطريق ٠

(٧)

(اجـابة المبتلى) :
هذا الاله الاعلى لا شأن له ،
وادرك تماما أنه الأعظم ،
لكن ، بعد أن فقدت صوابى
بعبادتك أنت ، أيها الخائن ،
جعلته غـير راض عنى ٠
بشريعتك المتملقة المزيفة
خدعتنى ، وجعلتنى
أترك الحقيقية ،
وأتبعك أينما حللت
ولا أبرح المكان الذى أنت فيه ٠

(٨)

لقد آمنت بك وحدك
بعـد أن عرفتك ،
أيحق لى ، اذن ، أن أمثل أمام
الاله الأعلى الذى فى حقه أخطأت
لأشكو اليه من عبدت ؟
بل أخبرنى أنت
كيف أترك من اليه بذلت ،
وأطلب المكافأة
ممن حدت عنه وابتعدت
ولم يعرفنى قط ؟

(٩)

لم يكن عادلا حكمك هذا
الذى أصدرت ضـدى
لأنى كنت غائبا ،

وبما أني الآن حاضر
عليك تعديله ، لأنه كان خاطئا ٠
وأعطني مهلة ومن الحكم نسخة
لـكي أدافع عن حقي
واذا لم اكن مذنبـا
سيحل بك العقاب ،
واقتص أنا لظلمي ٠

(١٠)

(اله الحب يجيب) :
ولو أن هذا سيحزنك كثيرا
الا أنني لا أكون الها كامل الأهلية
اذا بدلت حكمي ،
ولذا يجب أن يمضي كما هو
وأن يعمل به من الآن فصاعدا ٠
وغير ما تقدم لا يمكن أن يكون ،
فانظر ماذا ترى من مقابل ،
وكل ما يمكن عمله
لن أضن به عليك تعويضا
عن الضر الذى أصابك ٠

(١١)

(المبتلى يرد) :
ملكك العـريض
لن يعوضني ما فقدت ،
ولا تملك مثل هذا النفوذ
لتقتطع مني ما ينتسب الى
دون سبب أو حتي لماذا ٠
لو معروفا أسديت الى يـوما

تعرف تماما أننى كنت به أحق ،
لكن الضرر الذى ألحقت بى
كان فقط لأنك أردت
ولم يكن لجرم صدر عنى ٠

(١٢)

برغم جبروتك وسطوتك
آمرك بتوخى العدل فيما حدث ،
ولا تسلك طريق العناد
والاجرام والسقم
باصرارك على الظلم ٠
لو عاملتنا سواء
سيطيعك الجميع ،
أما اذا فرضت ارادتك
فلا تطلب منا الوفاء
لأننا سنضن به عليك ٠

(١٣)

(اله الحب يجيب) :
بوسعى الآن زيادة معاناتك
لأنك تجترأ كثيرا على ،
تعرف أننى سألجأ الى الشجار
وتسديد الضربات الموجعة
اذا لم تلزم حدودك ٠
وبما أنك تابعى
فلا تنصب نفسك سيدا على ،
فهذا ما لا يمكن قبوله ،
ولا تتماد فى شططك لأنى صامت
وتتخيل أننى هكذا بدافع الخوف ٠

(١٤)

(اجـــابة المبتلى) :
لا تحاول تهـــديدى
ودعك من هذه التشنجات ،
فليس بمقدورك ان تلحق بى أذى
آشــــــد من الممـــات
الذى هو مرادى ومقصدى ،
لا تظن أننى سألتزم الصمت
للتهديدات التى سالت من فمك
أو أن بامكانك استئناسى
اذا لم ترد الى
نفس ما سلبت منى ٠

(١٥)

(اله الحب يجيب) :
تعرف أن هذا لن يكون
أبدا ما دمت حيـــا ،
ولننظر ماذا ســـــتفعل
أو الى من ســــتلجأ
ليضمد جراحك غــيرى ،
أدرك جيدا أنك لابد وأن تأتى
زاحفا عــلى ركبتيك ،
لتتوســــل الى طالبــا
الســـماح بالمثـــول
لتلقى العزاء والســلوى ٠

(١٦)

(المبتلى يرد) :
أقترح عليك أمرا

فاصغ الى دون غضب :
لو أعطيتنى ما أشتهى ،
زاحفا على ركبتى ومستسلما
سآتيك ، وأخدمك بعينى ،
وغير هذا لا تعتقد
أن السرور يزور جفنى ،
لا أريد الا العراك والخصام ،
ولو سقت الى نفائس العالم
فلن تمتد اليها يدى .

(١٧)

(اجابة اله الحب والختام) :
للمعرفة الواسعة التى
أظهرت فى جدالك ،
لفكرك الصارم والثاقب ،
للآلام والعذاب
الذى قاسيت بسبب الحب ،
ألملم أشلاءك وأعيدك
الى ما تهوى كثيرا وترغب ،
وأرد عليك كل ما هو لك ،
بالماء المقدس أباركك وأختم كلامى
على ألا أراك ثانية فى مثل هذا أمامى .

النائم الذى قبلته حبيبته اثناء نومه

(١)

لجأت الى الخديعة وغدرت بى ،
جرحتنى ، وأنا نائم ،
بجرح جعلنى أتصور
أنه ما من آلام يمكن ان تفوقه

غــير الرغبة فى آخر
شبيه بما رميتنى به الأول ،
لكى لا يتقرح دائى
ولا الضر الذى هو من صنعك ٠

(٢)

أتســامح فى مماتى
لــكن بهــذا الشرط ،
آن ترتكبى فى اليوم ألف مرة
خيانات مثــل تلك ،
وكلهــا ضــدى ،
لأنها ، لو لم تكن كذلك ، ،
سيشقينى أن يحيق بغيرى
موت كنت به أحق ٠

(٣)

(خاتمـــة) :

لا يستعذب المرء آلام أول جرح
الا بجراح آخرى منه تشفى ،
ومن كان نائما يغنم كثيرا
وجب عليه ألا يستيقظ ٠

مقطوعات شعرية فى رثاء والده

(١)

أفيقى أيتها النفس الغافلة ،
أعملى الفكر واستيقظى
متأملة

كيف تمضى الحياة ،
ويأتى المـــوت
صـــامتا ،
كيف تنقشع اللذات سريعا ،
وتبقى ذكراها مصدرا
للحسرة والكدر ،
وكيف يبدو لنـــا ،
جمــــــال
كل وقت فات واندثر ٠

(٢)

اذا تأملنا الحــاضر
وجدنا بعضه آفلا
ومحتضرا ،
ولو أحكمنا التدبير ،
لاعتبرنا ما هو آت
فى حكم ما مر وانقضى ٠
فلا يخدعن أحد نفسه ، لا ينخدع
متوهما ضرورة استمرار
ما ينتظــــر
لأكثر مما استمر ما رأى ،
لأن كل ما فى الوجود
على هذا النهج يسير بقدر ٠

(٣)

حيواتنـــا أنهــــار
تصب فى بحر خضم ،
ألا وهـــو المـــوت ،
حيث يمضى السادة
فى غير انحراف الى الفناء

والعـــدم :
الى هناك تجرى الأنهار الفياضة ،
وما هــو دونهــا
والأكثر صــغرا ،
وعند الوصول ، يتساوى
الكادحــون الفقراء
وأصحاب الثراء ٠

(٤)

(ابتهال)
لن أستحضر
مشــاهير الشــعراء
ولا الخطبـــاء ،
فلن تشفينى أوهامهم من سقم ،
على ما فيها من أعشاب سرية
حســنة المذاق ،
بل أبتهل فقط
وبصــــدق ،
بالذى لم يكتشف العالم
ألوهيتــه
أثناء حياته فيه ٠

(٥)

هذه الدنيا طريق
لأخرى ٠٠ لدار قرار
خالية من الاحزان ،
والعاقل من يجتهد
فى قطع هذه الرحلة
دون أخطاء ٠

نبدأ الرحيل عندما نولد
ونظل نمشى بينما نعيش
لنصـــــل
أخيرا الى نهاية الطريق ،
وهـــكذا نستريح
عندما يطرق بابنا الموت ٠

(٦)

هذه الدنيا تتحول الى أرض طيبة
لو أحسنا ، كما ينبغي ،
فيهـــا الغرس ،
فديننا يقـــرر
أنها دار عمل لكسب تلك
التى ننتظرها ٠
والمســـيح عيسى
لكى يصعد بنا الى السماء ،
هبط
ليولد هنا بيننا ،
وليموت على هذه الأرض
حيث مات ٠

(٧)

ألا ترون ضآلة
الأشياء التى نعدو خلفها
ونجـــرى ،
أن كل ما تقع عليه أعيننا
فى هذا العالم الغادر
يضيع وينمحى ٠
ففيه يذوب العمر ويتلاشى ،

وتسقط النكبات
وتتداعى ،
وفيه تضعف العروش السامقة
وتتهاوى ٠

(٨)

أخبرنى أيها الجمال ،
أيتها الرشاقة العذبة ،
يا بشرة الوجه ،
يا لون ، يا بياض٪
من منكم فى الهرم
يبقى على حاله ؟
البراعة والخفة
وفتوة
الشباب ،
تؤول جميعها الى حمل باهظ
عندما تصل الى ضواحى
الشيخوخة ٠

(٩)

دم القوط الزكى
والنبالات والسلالات العريقة
السامقة ،
فى كم من الدروب
تسربت رفعتها
فى هذه الحياة !
وآخرون أقل شأنا ،
وبرغم ضعفهم وهوانهم

ارتقوا أعلى الدرجات ! ،
وفريق ثالث ، معدم تماما ،
ومن خلال أعمال كريهة
أصبح يشار اليه بالبنان ٠

(١٠)

الجـــاه والغنى
ينفلتان منا دون سابق انذار ،
أيشك في هـــذا أحد ؟
وكيف نطلب منهما البقاء
وهما من امرأة لعوب
دائمـــة الترحال !
كم من الثروات تحط من السماء
لتعود القهقرى بعجلاتها
المسرعات ،
فدوام الحال من المحال
والاستقرار لم يكتب لشيء
في هـــذه الدار ٠

(١١)

لكنى أقول انها ترافق
وتلازم في القبر
صـــاحبها :
وعلينا بالتالى ألا نخدع أنفسنا ،
فالحياة تمضى مسرعة
كالحلـــم ،
والمتع التى نجدها هنا
لا يطول التلذذ بها

لأنهـا فانية ،
أما عذاب الآخرة
الذى ينتظرنا بسببها
فانه سرمدى دائم ٠

(١٢)

مبـاهج ومتـع
هذه الحيـاة الشـاقة
التى رزئنا بهـا ،
سريعة العدو ليس الا ،
والمـوت ، هـو الكمين
الذى نسقط فيه ٠
ودون أن ننتبه الى الخطر
نجرى والحبل على الغارب
بلا هـوادة ،
وحينما نكتشف الخدعه
نلتمس العـودة
بعد أن سد الطريق ٠

(١٣)

لو كان باستطاعتنا
تجميـل الـوجه
الآدمى ،
فكيف نستطيع أن نجعل
الـروح جليلة
ملائكيـة ؟
كم من العناية
نولى كل سـاعة ،
ودون تأخـير ،

عمـــارة الأســـير
تاركين الحــرة (٢)
نهبـــا للضياع !

(١٤)

حياة الملوك الجبابرة ،
الذين عرفناهم من الوثائق
القـــديمة ،
تغص بالمآسى والأحزان ،
فحظوظهم المواتية السعيدة
تحــولت مــع الأيام ،
وهكذا لم تمنح المنعة لمخلوق ،
فالبابوات والاباطرة
والأســـاقفة ،
مثل رعاة الأغنــام
الفقـــراء ،
جميعهم أمام الموت سواء •

(١٥)

دعوتنا من الطروادين
فنحن لم نشاهد محنهم
ولا أمجـادهم ،
ولننح الرومانيين جانبا
بالرغم من سماعنا واطلاعنا
عـــلى ســـيرهم ،
كما أننا لن نحاول نبش
القـــرن المـــاضى
للوقوف على ما جرى فيه ،

---

(٢) الأسير هو الوجه الآدمى ، اما الحرة فالمقصود بها الروح •

ولنعمد الى ما حدث بالأمس
وان كان النسيان قد طواه أيضا
مثـــل ســـابقيه ·

(١٦)

ماذا كان من أمر الملك دون خوان ؟
وأمراء أراجون
ما الذى جرى لهم ؟
ماذا فعل المتيمون الحسان ،
وما بال ابتكاراتهم
التى جاءوا بهـــا ؟
المبارزات وألعاب الميدان ،
الزخارف ، الخوذات المزينة
والصـــولجان ·
ألم تكن سوى هراء
أو خضروات
بيـــادر ؟

(١٧)

ماذا جرى للهوانم المتأنقات
ولملابسهن الفاخرة وزينتهن
وعطـــورهن ؟
هـــل دامت
نيران الحب المستعرة
للعشـــاق ؟
ما أخبار شعراء التروبادور
وموسـيقاهم العـذبة
التى كانوا يعزفون ؟
والراقصون ماذا فعلوا

يحللهـم الموشـــاة
التى كانوا يرتدون ؟

(١٨)

ووريث الملك دون خوان ،
دون انريكى ، وقد بلغ من القوة
والسـلطان ما بلـغ .
كم لان له الدهر ،
وداهنه بالمتع التى ساقها
تحت قدميــه !
لكنه سرعان ما أظهر عداوته
وخصومته ، وأبان له عن
قســوته ،
فلم يدم العطـاء
الا قليـــلا
عندما كان الدهر صديقا .

(١٩)

القناطر المقنطرة ، من الهبات والعطايا ،
والعمـائر الملكيـة
المليئـة بالذهب ،
الأوانى الفاخرة المشـغولة
ومســـكوكات
الخـــزائن ،
الخيـل المطهمـة
وفرسانها بزيهم الموشى
بالقصــب ،
الى أين نذهب للبحث عنهم ؟
لم يكونوا سوى قطرات من ندى
فوق أوراق الشجر ؟

(٢٠)

والاخ الساذج لدون انريكى
الذى جعلوه خليفة له
وهو على قيد الحياة ٠
كم كان بلاطه بهيا ورائعا ،
وكم كان عـدد السـادة
الذين تبعـوه !
وبما أنه فان مثل كل البشر
فقد صهره الموت
فى بوتقتـه ٠
آه ، من عدالة السماء !
عندما ازدادت النار اشتعالا
ضببت عليها ، يا الهى ، الماء !

(٢١)

وذلك القـائد المهيب
رئيس الرهبانية العسكرية الذى عرفناه
غاية فى القـوة والجاه ،
لم يسلمه ما كان فيه يقال
من مغادرة الحيـاة
مذبـوحا ٠
كنوزه التى لا تحصى ،
قصوره وأراضيه ،
ونفوذه وأوامره ،
ألم تتحـول الى بكاء ؟
والى همـوم وأحزان
عندما راح وتركها ؟

(٢٢)

وأخـــواه الآخـــران
قائدا الرهبانيتين العسكريتين المتألقان
كالملـــوك ،
كبار الناس وأوساطهم
دانوا لهمـــا
بالـــولاء ،
هـــذا التألق
الذى امتد الى عنان السماء
مغلفا بالمديح والاطراء ،
ألم يكن ســـوى ضياء
عندما اشـــتد توهجه
ألم به العفـــاء ؟

(٢٣)

كم من « دوق » رفيع الشأن
وكم من « ماركيز » و « كونت »
و « بارون » ،
كانوا فى غاية القوة كما رأينا !
أخبرنى ، أيها الموت ، أين ذهبت بهم
وأخفيتهم ؟
وبطولاتهم الفـــذة
التى ظهرت فى ميادين القتال
وأروقة الســـلام ،
عندما تغضب ، أيها الفظ ،
تواريهـــا بعنف التراب
وتحيلهـــا الى خراب ٠

(٢٤)

الجيوش الجرارة التى تفوق الحصر ،
الرايات ، البيـــارق
والأعـــــلام ،
القـــلاع المنيعـــة ،
الأســـــوار والحصـــــون
والمتـــــاريس ،
الخنادق العميقة ، العتاد
وما عداه من أجهزة الحرب ،
ما فائدة كل هذا ؟
عندما تأتى مغاضبا
تخترق كل المـــوانع
بســـهمك النـــافذ .

(٢٥)

وذلك الفارس الذى لا يشق له غبار (٣)
المحبـــــوب لفضله
من النـــــاس ،
دون رودريجو مانريكى
القائد الحربى ، ذو الشهرة الواسعة
والشجاعة المنقطعة النظير ،
مآثره الفذة الواضحة
لن أوفيها بالثناء حقها
فقد شاهدها الجميع ،
ولا أنـــوى التغنى بهـــا
لأن الخـــلائق كلهـــا
تعـــرف قدرها .

---

(٣) من بداية هذه المقطوعة وحتى نهاية القصيدة يتحدث الشاعر عن والده .

(٢٦)

كان لأصحابه وفيا ودودا ،
ولأتباعه وأقاربه
سيدا مقصودا ،
ولأعدائه خصما عنيدا ·
ياله من قائد لبواسل
وشجعان !
كان مع الحصفاء كتوما ،
ذو فضل مع الكرماء ،
وصاحب رأى سديد ·
شديد الرفق بالمقهورين ،
ومع الآثمين الضالين
أسد هصور ·

(٢٧)

فى المغامرة « أوكتافيو »
« يوليوس قيصر » فى الحرب
والنزال ،
فى الفضيلة « أفريكانو » ،
« هانيبال » فى المعرفة
والنضال ،
فى الطيبة « تراخانو » ،
« تيتو » فى الأريحية
والسخاء ،
فى ساعده « أوريليانو » ،
« ماركو آتيلو » فى الصدق
والوفاء ·

(٢٨)

« أنطونيو بيو » فى الرحمة ،
مثل « ماركو أوريليو »
فى بهـاء الطلعة ،
« أدريانو » فى الفصاحة ،
« تيودوسيو » فى الانسانية
وجمـال المحيـا ،
« أوريليو أليخاندرو »
التزاما وصرامة
فى ساحات القتال ،
« قسطنطين » فى شدة الايمان ،
« كاميلـو » فى الهيـام
بتراب الأوطان ٠

(٢٩)

لم يترك كنـوزا ،
ولا ثروات عريضـة
ولا أواني مشـغولة ،
لكنه حارب المسلمين
وانتزع منهم المـدن
والحصـون ،
وفي الحروب التى انتصر فيها
كلفهم كثيرا من الأنفس والخيل
والمتـاع ،
فرض عليهم الجزية
وأتاه كرها كثير
من الأتبـاع ٠

(٣٠)

وشرفه وعظيم شـأنه

كانا سندا له في المـاضى ،
فكيف تم هذا ؟
بعد أن انفض عنه الأعـوان
تماسك معتمدا على اخوته
ومماليـــكه ·
ومرت أحداث شهيرة
خاضـها بجســارة
مثـــل غـــيرها ،
وأتى بأفعال مجيدة
جلبت له أرضا أكثر
مما كانت لديه ·

(٣١)

هذا هو تاريخه القديم
الذى خطه بيديه
فى الشـــباب ،
وانتصارات أخرى جديدة
أضـافها اليـــه
فى المشـــيب ·
ولمهـارته الفائقـة
ومواهبه ، وعمره الذى أنفقه
فى النضـــال ،
تربع على عرش الفروسية
وأصبح رمزا للسيف والنزال ·

(٣٢)

وقصـــوره وأراضيه
التى غافله الطغـاة
وجثموا فوقهـا ،
بالحصـار والحـروب

وقوة ساعديه استطاع
أن يفك اسارها .
وقد خدم بهذه الأعمال
المجيدة
مليكنا الشرعي ،
ولتسألوا ملك البرتغال
وصاحب قشتالة الذى كان له
من خيرة الأعوان .

(٣٣)

وبعد أن حمل رأسه
على كفه لتحقيق هدفه
في مواطن عديدة ،
وخدم بجد وحماس
تاج مليكه الحقيقي
بأعمال جليلة ،
وبعد البطولات الفذة
التي لا يستطيع المرء
حصرها ،
في مقره بأوكانيا
أتى الموت ليطرق
عليه بابه

(٣٤)

قائلا : ـ « أيها الفارس الطيب ،
حان الوقت لوداع العالم المخادع
والانصراف عن مداهنته ،
وليظهر قلبكم الصلب
رباطة جأشه المعهودة ..

للتجرع من هذه الكأس
وبما أنكم لم تكونوا تعبأون
بالحيـاة والصـحة
فى سـبيل المجـد ،
فليتسـع فضـلكم
لبذل هذا القربان
الذى حانت ساعته ٠

(٣٥)

لن تكـون مريرة
المعـركة المخيفـة
التى تنتظـرون ،
لأن حيـاة أخـرى
من المجـد المؤثل
هنـا تتركون ،
(وبالرغم من أن حياة المجد هذه
ليست حقيقيـة أيضـا
ولا سرمدية) ٠
الا أنها ، فى كل الأحوال ، أفضل بكثير
من الفانيـة
الحاليـة ٠

(٣٦)

أما الحياة الأبدية
فانها لا تجنى بالمقامات
الدنيـوية ،
ولا بحياة المتع والملذات
حيث تعشش المعـاصى
الجهنميـة ،

لكن المتدينين الطيبين
يستحقونها بالصلوات
وكثرة البكاء ،
والفرسان المشهورين
بالكفاح ومقارعة
المسلمين الأعداء ٠

(٣٧)

وبما أنكم ، أيها الفارس المغوار
قد أرقتم كثيرا من دماء
الوثنيين ،
فانتظروا المكافأة
التى ربحتموها فى هذا العالم
بساعدكم اليمين ،
وبهذه الثقة التى تطوقكم
وللايمان الحق المتغلغل
فى أعماقكم ،
ارحلوا وكلكم أمل
فى الفوز بحياة أخرى ثالثة
بدار اليقين » ٠

(٣٨)

(اجابة دون رودريجو) :
لم يعد لدينا وقت الآن
فى هذه الدار البائسة
ومن ثم ،
فارادتى تتفق تماما
مع المشيئة الالهية
فى كل أمر

وأمضى الى حتفى
بنفس راضية ورغبة
صافية خالصة ،
فاختيار الانسان للعيش
عندما يريد الله له الموت ،
ذروة العته والجنون ·

(٣٩)

(صلاة)
يا من اتخذت ، بسبب ظلمنا وجهالتنا
شكلا آدميا
واسما أرضيا ،
يا من وصلت سموك وألوهيتك
بشيء غاية فى الحقارة
مثل الانسان ،
يا من تحملت الآلام العظيمة
دون مقاومة ، وأنت القادر
على دفع الطغيان ،
اسألك العفو عنى
لا لأنى أستحق
بل فقط لأنك أنت الرحمن ·

(٤٠)

(خاتمة)
وهكذا ، والنفس راضية مطمئنة ،
وجميع الحواس البشرية
حاضرة مستكنة ،
وهو محاط بزوجته
وأولاده واخوته

ومماليــكه ،
أسلم الروح لبارئهــا
(ليدخلها جنتــه
فى الســـماء)
وبرغم فقده للحياة
الا أنه ترك لنا ذكراه
ســلوى وعزاء ٠



الرومانث الأسباني

أولا : التعريف بالرومانث

ينفرد الأدب الأسبانى عن بقية الآداب العالمية بلون خاص من الشعر ، مثقل بالايحاءات ، يطلق عليه اسم : « الرومانث » •• ولما كانت كلمة « رومانث » تستعصى على الترجمة بمعادل واحد لأنها ذات دلالة خاصة ، فلا مفر اذن من تقديم لمحة عنها لكى نتعرف على الجنس الأدبى الذى تشير اليه •

ذكرنا من قبل أن كلمة « رومانث » كانت تطلق فى العصور الوسطى على اللغة الأسبانية فى مراحلها الأولى : أى على لهجة مملكة قشتالة المتطورة عن اللاتينية العامية فى القرن السابع الميلادى • وفى خلال القرون التالية (وخاصة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر) كانت تشير أيضا الى بعض التراكيب الشعرية المتنوعة التى وضعت باللغة العامية • فالرومانث عبارة عن : أغنية شعبية تخضع لنوع خاص من الوزن يعتمد على ثمانية مقاطع وتحافظ على نظام خاص للقافية •

وبالرغم من صعوبة تحديد تاريخ دقيق لبداية هذا اللون من الأغانى الشعبية ، الا أن عددا كبيرا من النقاد ـ معتمدين على بعض الاشارات التاريخية الواردة بها ـ يرجعون أصولها الى القرن الرابع عشر • ففى هذا القرن تراجع الاقبال على القصائد الملحمية الطويلة التى ألفت فى القرون السابقة ، وانكمش الرواج الذى كانت تتمتع به من قبل ، ولم يبق منها سوى مقطوعات متناثرة ومنفصلة عن الأصل

احتفظت بهـا الذاكرة الشـعبية وأنقذتهـا من الضـياع والنسـيان • وهـذه المقطـوعات تمثل البـداية الحقيقية للرومانث •

ونظرا لسحر هـذه المقطوعات وخفتها وجمالها واقبال الجماهير عليها ، فقد انبرى العـديد من المؤلفين المجهـولين بانشاء الأغانى التى تناسب ذوق الجمهـور وتثير مشـاعره وأحاسيسه وتلبى رغباته الفنية • ولم تكن الأغنيـة ملكا لفرد واحـد بل ارثا مشـاعا للجميع ، ومن حق الجمـاعة التصرف فيها بالحذف أو الاضافة أو التعـديل لأنها كانت تعتمد على المشافهة فى التداول •

ونتيجة لاختلاف أذواق النـاس من مكان لآخـر ومن جيل الى جيل ، فان الأغنية الواحدة أخـذت أشـكالا متعددة وصورا مختلفة قد تصل ــ أحيانا ــ لحد التباين •• فبعـد أن دخلت الطباعة أسبانيا فى أواخر القرن الخـامس عشر وبدأ المهتمون فى جمع هذه الأغانى ونشرها اتضح أن كثيرا منها يجمع بين العشرات من الأشكال والصور •

والأغانى الرومانثية التى تنتسب الى القرنين الرابع عشر والخامس عشر تعـرف باسـم : « الرومانث القديم » (وهو الذى يعنينا فى هذه المختارات) •

وقد استهوى « الرومانث » شعراء أسبانيا منـذ ذلك التاريخ وحتى العصر الراهن : ففى القرن السـادس عشر ألف شعراء كبار « رومانثيات » ، وفى القرن الذى يليـه أيضا ، وعندما جاء الرومانسيون فى القرن الثامن عشر احتفوا به أيما احتفاء ، وفى القرن العشرين اهتم به شعراء مشهورون وآلفوا على غراره ومن بينهم نذكر«جارثيا لوركا» و « أنطونيو ماتشادو » • وبالرغم من الاهتمام المتواصل بتأليف وكتابة « الرومانث » الا أن ما كتب منه خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر يعتبر أفضله لطابعه الجمـاعى

وعفويته وبساطته وسحره الأخاذ ، ولذلك نجد أنه الوحيد الذى ظل عالقا بذاكرة الأجيال المتعاقبة ، ولا يزال الناس يرددونه حتى يومنا هذا فى أسبانيا وأمريكا اللاتينية وبعض مدن المغرب العربى ·· كما أنه تجاوز حدود أسبانيا الى ما عداها من الدول الأوربية التى حاكته (فرنسا ، انجلترا ، ألمانيا ، ايطاليا ·· الخ) وان كان الانتاج الأدبى من هذه الأغانى الشعبية لا يرقى فى كل البلاد الأوربية الى المستوى الذى وصل اليه فى أسبانيا حيث ثراء الموضوعات وجمال الأسلوب ·

وللرومانث الأسبانى القديم أهمية خاصة ومنزلة عظيمة فى كل الأوساط الأدبية ، ويكفى أن نشير الى تسمية « هيجل » له « باللآلىء المنثورة » ، وتصنيفه له ضمن أجمل وأفضل ما تركه لنا الأقدمون من شعر ·

ولقد اعتاد النقاد التمييز بين نوعين من « الرومانث القديم » (أى المؤلف فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر) : « الرومانث التقليدى أو التراثى » ، « رومانث الشعراء الجوالين » ·

ويطلق النوع الأول (التقليدى أو التراثى) على الأغنيات التى تنحدر عن الملاحم والسير الشعبية القديمة · فبعض المشاهد المتقطعة أو المنفصلة من هذه الملاحم أعجب بها الناس وظلوا يرددونها جيلا بعد جيل بمعزل عن بقية الملحمة ·· ولذلك فقد مرت هذه المشاهد الملحمية بسلسلة من التعديلات حيث حذف منها بعض التفصيلات «الموضوعية» غير الهامة ، وألحق بها فى المقابل عناصر «ذاتية» عاطفية ، مما أدى الى تخفيف جانب القص فيها واكسابها طابع السرعة والرشاقة وبالطبع ، فان أغنيات هذا النوع تحمل نفس عناوين الملاحم التى تنتسب اليها أصلا ، ونذكر منها — على سبيل المثال — : « أمراء لارا » ، « فرنان جونثالث » ، « حصار زامورا » ، « السيد » ، ·· الخ ·

أما « رومانث الشعراء الجوالين » فهو الذى أنشأه هؤلاء الشعراء بعد ذيوع النوع الأول وانتشاره بين الناس الذين كانوا يتغنون به في الحفلات والأعياد وفي غيرهما من المناسبات .. وكانت أغانى الشعراء الجوالين فى البداية طويلة ورتيبة ، لكنهم لجأوا بعد ذلك الى تأليف الأغانى القصيرة التى حاكت أغانى النوع الأول فى سرعة الايقاع والخفة والسلاسة .

والموضوعات التى يتناولها « الرومانث القديم » ثرية ومتنوعة ، ومع هذا يمكن حصرها فيما يلى :

ـ الموضوعات التاريخية :

وتحتوى ـ بالاضافة الى الموضوعات المستقاة من التراث الأسبانى ـ على سلسلة طويلة من الموضوعات الاغريقية واللاتينية .

ـ الموضوعات الفرنسية :

والمقصود بها الأغنيات المنحدرة عن الملاحم والسير الشعبية الفرنسية والتى كانت ذائعة فى أسبانيا وقتها .. وبعض هذه الأغانى تدور حول شخصية « شارلمان » و « رولدان » (رولان) ، والبعض الآخر حول شخصية « لانثاروتى » وفارس الملك آرثر و « تريستان » .

والأغنيات التى تعالج هذا النوع من الموضوعات تتسم بالطول ، كما أنها تشتمل (كما هو الحال فى الملاحم الفرنسية) على قدر كبير من الخيال والعناصر الزخرفية ، وتتميز كذلك بالمفهوم الليبرالى للحب (على خلاف الصرامة الخلقية التى يتسم بها الأدب الأسبانى) .

ـ الموضوعات القصصية :

وتتناول موضوعات متنوعة أغلبها عاطفى ، مثل الأغنيات التالية : « الأميرة المحتجبة » ، « سيدتى الجميلة » ، « للصيد يذهب الفارس » ، و « ابنة ملك فرنسا » .. الخ .

ـ الموضوعات الغنائية البحتة :

وهى الأغنيات التى تركز جل اهتمامها على ابراز الشعور العاطفى والتعبير عن لواعج الحب والهوى . وهى عادة ما تكون قصيرة وتكاد تخلو من الأحداث ، ومنها نذكر : « فى أشبيلية صومعة » ، « الأسير » ، «فونتيفريدا» . الخ .

ـ الموضوعات الحدودية (العربية) :

لم يقتصر الشعراء الجوالون على الحديث عن الماضى بل اتخذوا من الأحداث المعاصرة لهم مادة لأغانيهم . ولهذه الأغنيات أهمية تاريخية كبيرة لانها سجلت بعض مشاهد الحلقة الأخيرة من سلسلة الصراع الطويلة بين المسيحيين والمسلمين عندما لم يكن فى يد العرب أيامها سوى مملكة غرناطة التى سقطت عام ١٤٩٢م .

ومعظم هذه الأغنيات وان كانت من وضع مؤلفين مسيحيين الا أنها تنبض بروح الانصاف للعرب ، وتصل الى الحد الذى تتبنى فيه بتعاطف وجهة نظر الخصم العربى وتعرض مشاعره فى احترام واعجاب ، وقد دعا هذا بعض الباحثين الى الظن بأنها من تأليف الموريسكيين (المسلمون الذين بقوا فى أسبانيا بعد سقوط غرناطة) الذين كانوا يجيدون الأسبانية ويكتبون بها . وقد ضمنا هذه المختارات عددا من الأغنيات التى تتناول موضوعات عربية والتى كان يتغنى بها المسلمون والمسيحيون على حد سواء وخاصة فى المناطق المتاخمة للحدود المشتركة بينهما .

وكما أشرنا من قبل ، فان الأغانى الشعبية الأسبانية « الرومانث » قد نالت شهرة عالمية واحتلت مكانا مرموقا فى عالم الأدب لأنها مثقلة بالايحاءات ، ولما تشتمل عليه من بساطة وشفافية ورقة وعفوية شديدة ، ولأن معيارها فى الانتقاء كان يتفادى كل ما ليس له قيمة جمالية . كما أن

عدم الاهتمام فيها بالوحدة العضوية ، وبعدها عن الوصف التقريرى قد فجرا كل امكاناتها الشعرية وآضيفا عليها نوعا من السحر الخلاب الذى يلف القارىء أو المستمع فى عالم من الغموض والمتعة • ويمكن أن نضيف الى ما تقدم الخروج فيها عن القواعد والتقاليد اللغوية الصماء ، وخاصة فيما يتعلق باستخدام الأزمنة حيث يتم الانتقال من زمن الى نقيضه بشكل مفاجىء ـ لكن دون أن يؤدى هذا الى لبس أو غموض فى المعنى ـ ، وقد تسبب هذا فى زيادة حدة التوتر الشعرى وسرعة الايقاع •

ولا نريد الخوض فى المزيد من المعلومات عن هذه اللآلىء المنثورة المسماه بالرومانث لنترك للقارىء فرصة الاستمتاع بما فيها من سحر وجمال •

ثانيا : نماذج من الرومانث الأسبانى القديم

رومانث دونيا ألدا

فى باريس « دونيا ألدا »
قرينة « دون رولدان » ،
ثلاثمائة من السيدات معها
لأجل صحبتها :
كلهن يرتدين ثيابا موحدة
ويلبسن نفس الحذاء ،
كلهن يأكلن على مائدة واحدة
ويطعمن نفس الطعام ،
فيما عدا « دونيا ألدا » ،
فقد كانت لهن الأميرة ·
مائة تغزلن من الذهب خيوطا ،
ومائة تنسجن الحرير الشفاف ،
مائة تعزفن على الآلات
لكى تقضى « دونيا ألدا » أسعد الأوقات ·
على صوت المعازف
الى عينى دونيا ألدا تسلل نوم جارف ،
شاهدت حلما فى المنام ،
حلما به كثير من الأحزان ·
استيقظت مذعورة

متألمة مقهــورة ،
أطلقت صرخات عاليات
سمعها من كان بالمدينة .
هرعت اليهــا الوصيفات
اســمعوا قولهن لها :
ـ ما هــذا ، يا سيدتى ،
هــل مسـك أحد بســوء ؟
حلما حلمت ، يا وصيفات
فرق من القلب آلنياط ،
رأيت نفسى فى جبل معزول
بمكان قفر مهجــور :
فى سفوح الجبــال الشامخات
شاهدت باشقا يحاول الطيران ،
خلفه يمضى عقــاب
يصليه ألوانا من العذاب .
اتجه نحوى الباشق المقهور
حط فوق ردائي الحرير ،
العقاب مشحونا بالغضب
كان ينتزعه من حجري ،
ينتف بمخالبه ريشــه ،
وبمنقاره يمزق أوصاله .
تحدثت حينئذ كبرى وصيفاتها
انتبهوا لما ستقوله لها :
ـ تأويل ذلك الحلم ، يا سيدتى ،
ينطوى عــلى ما يسركم :
الباشــق هو زوجكم ،
قادم من أعالى البحار ،
والعقاب لا أحد غيركم
وبالقادم ســتتزوجين ،
أما الجبل فلا شيء سوى الكنيسة

حيث تتم مراسم الزواج .
— لو كان هكذا ، يا وصيفتى الوفية ،
أعطيك ما تطلبين .
فى اليوم التالى صباحا ،
من بعيد جاءتها رسائل ،
حروفها مداد من الداخل ،
ومن الخارج مكتوبة بالدماء ،
بموت حبيبها « رولدان »
فى مفازة « رونثيسباييس » .

رومانث الأسـير

آه من مايو ، ومن مايو آه !
حينما يسرى الدفء وتشتد الحرارة ،
عنـدما يلبى العشـاق
نداء الحب والأشواق ،
الا أنا ، حزين مسكين ،
أسير غياهب السجون ،
لا أعرف ما اذا كان الوقت نهارا
أو ليـلا يكـون ،
الا بعصفور حنـون
كان يشدو لى عند انبلاج الصباح ،
قتله رامى الأقواس ،
ليجزه الله شر الجزاء !

رومانث فونتيفريدا

فونتيفريدا ، فونتيفريّداْ ،
فونتيفريدا والحب تُغريدَةْ ،
حيث تذهب كل العَصَافِير
لنشدان السلوى والسَكينَة ،
فيما عدا اليمامة

أرملة تعتصرها الأحزان .
من هناك يلف ويدور
خائن العندليب الكسير ،
الكلمات التى يرددها
تنضح غدرا وخيانة :
— لو شئت ، يا سيدتى ،
أكون خادمك الفقير .
— ابتعد من هنا ، أيها الشرير ،
العدو ، المنافق ، معدوم الضمير ،
أنا لا أحط فوق غصن نضير
ولا على مرج به زهور ،
لو وجدت الماء صفوا قراحا ،
لشربته كدرا وطينا ،
لا أريد لى زوجا ،
ولا منه أولادا ، لا أريد ،
لا أريد معهم سرورا
ولا حتى عزاء .
اتركنى ، أيها العدو الكئيب ،
الفاسق ، المزيف ، الأثيم ،
فلا أريد أن أكون صديقة لك
ولا حليلة ، لا أريد .

رومانث الملك المسلم :

آه منك يا بلنسية ، آه منك يا بلنسية !
آه بلنسية بالنشيانا !
كنت للمسلمين زمنا
وأنت الآن مسيحية ،
ولن يمضى وقت طويل
حتى تعودى للمسلمين ،
للملك المسيحيين وقائدهم

سأنتف لحيته ،
والملكة زوجتــه
ســأتخذها خادمة
أما ابنته الجميلة
فستكون لى حليلة ٠
شاء رب السماوات
أن يسمعه الملك الصالح ،
عجل بالذهاب الى قصر الأميرة
التى كانت فى السرير نائمة ٠

— ابنتى ، يا مهجة القلب والفؤاد !
يا نور عينى وفلذة الأكباد !
انهضى حالا دون تأخير ،
ارتدى ثياب العيد
واذهبى الى ملك المسلمين ،
واشغليه بكلام جميل

— أخبرينى ، يا صبية
أتهاون ما أرى أم عنجهية ؟

— لازال أبى فى ساحة القتال ،
أمى فى الفراش نائمة
وأخى الأكبر
قتلوه فى الميدان ٠

— أخبرينى ، يا صبية ،
ما وراء هذه الضوضاء ؟

— انهم غلمــان أبى
للجواد يقدمون الشعير والماء ٠

— أخبرينى ، يا صبية ،
الى أين يذهب كل هذا العتاد ؟

— انهم غلمان أبي
يجرون أذيال الهزيمة النكراء ٠
لم تمض ساعة من نهـــار
حتى سقط ملك المسلمين فى الشراك ٠
— أخبرينى ، يا صبية ،
ما العقوبة التى ستحيق بى ؟
— العقوبة التى كنت تستحق ،
تستحق الحرق بالنـــار
والرماد المتخلف عنك
يستحق التذرية فى الهواء ٠

رومانث الأختين :

— أيها العربى ، اذا ذهبت الى آسبانيا
هات معك أسيرة ،
ليست بيضاء ولا قبيحة ،
ولا من آصول منحطة ٠
ها هو الكونت فلوريس قادما
آت من الكنيســـــة ،
كان يدعو ربه
أن يهبه ابنا أو ابنة ٠
— كونت فلوريس ، كونت فلوريس ،
زوجتك ستكون أسيرة ٠
— لا ، لن تكون أسيرة ،
وبين جنبى روح ترفرف ٠
— اليك أحضر ، آيتها الملكة المسلمة ،
مسيحية فى الجمال آية ،
ليست بيضاء ولا قبيحة ،
ولا من أصول منحطة ،
ليست زوجة لأى ملك ،

ولكونت قشتالة حليلة ٠
— من بين ما عندى من اماء
ستكونى أنت الأثيرة ،
اليك أسلم مفاتيحى
لتكونى على مطبخى مديرة ٠
— سآخذها ، يا سيدتى ،
لحسن طالعى وحظى ٠
حاملا كانت الملكة ،
حبلى كانت الأسيرة ،
أراد الله والمقادير ،
أن تلد الاثنتان فى نفس اليوم ٠
الملكة وضعت فى العرش ،
على الأرض كانت تلد الأسيرة ،
بنتا أنجبت الملكة ،
الأمة وضــعت ذكرا ،
القــابلات مزيفــات ،
الذكر بالأنثى يستبدلن ،
للملكة يعطين الولد ،
الأمة تأخــذ البنت
عندما كانت تغير لفائفها ذات يوم
كانت تقول هذه الكلمات :

— لا تبكى ، يابنتى ، لا تبكى
ابنتى ولست لى وليدة ،
لو عدت يوما الى بلادى
أعمدك خير تعميد ،
وسأخلع عليك اسم
ماريا زهرة الحياة ،
فقد كانت لى أخت
بهذا الاسم تعرف ،
كانت لى أخت ،

أخذها المسلمون أسيرة ،
لأسرها ذهبــوا
صبيحة يوم شديد البرودة ،
وهى تقطف الورد والأزهار
من بستان أبيها ٠
الملكة ســمعتها
من حجرة تنام بها ٠
على الفور أرسلت فى طلبها
زنجى كان عندها ٠

ــ ماذا تقولين ، أيتها الأمة الجميلة ؟

ــ ماذا تقولين ، أيتها الجميلة الأسيرة ؟

ــ كلمات ، يا سيدتى ، كنت أتحدث بها ،
وعلى مسامعكم أيضا أعيدها :
لا تبكى ، يابنتى ، لا تبكى ،
ابنتى ولست لى وليدة ،
لو عدت يوما الى بلادى
أعمدك خير تعميد ،
وسأخلع عليك اسم
ماريا زهرة الحياة ،
فقد كانت لى أخت
بهذا الاسم تعرف ،
كانت لى أخت ،
أخذها المسلمون أسيرة ،
لأسرها ذهبــــوا
صبيحة يوم شديد البرودة ،
وهى تقطف الورد والأزهار
من بستان أبيها ٠

ــ لو كان ماتقولين حقيقة ،
تكونين أختى الشقيقة ٠

— حق هذا ، يا سيدتى ،
كاليوم الذى ولدتنى فيه آمى •
تعـانقت الأختـان
وهما تبكيان وتنتحبان •
الملك العربى سمع البكاء •
من غرفة يكتب بها •
أرسل في طلبهما
زنجي كان عنده :
— ما يبكيك ، يا حياتى ؟
— ما يبكيك ، يا روحى ؟
لقد كنت لتوى مشغولا
باستجلاب النفائس التركية •
ردت عليه الملكة
بما يلى من كلمات :
— أبدا لن تنتعش روحى
بالنفائس والأيقونات •
ذات يوم بينما تتنزهان
ومعهما الابن والابنة
تعاهدت الأختان
على العودة الى الأوطان •

رومانث ابنة ملك فرنسا

من فرنسا رحلت الصبية ،
من فرنسا المصونة المحمية ،
الى باريس كانت ذاهبة
الى حيث يقيم والداها •
تائهة ، ضلت الطريق ،
تاهت ومعها الدليل ،
الى جوار شجرة بلوط حطت رحلها
في انتظار قادم أو رفيق •
من بعيد رأت فارسا

يغذ السير الى باريس ·
الصبية ، عندما أبصرته
بهذا النداء أوقفته :

— لو يروق لك ، أيها الفارس
أسافر في صحبتك ·
— بكل سرور ، يا سيدتي ،
بكل سرور ، يا حياتي ·
ترجل عن جواده
مجاملة لهـا وتحيـة ،
أركبها على المؤخرة
وعلى السرج استوى جالسا ·
في منتصف الطريق شغف حبا بها
فراودها عن نفسها ·
الصبية ، بعد سماعها لكلمات الغزل
قالت له بحزم وجسارة :

— مهلا ، مهلا ، أيها الفارس ،
لا ترتكب هذه الحماقة :
أنا سليلة رجل أبرص
وامرأة مجذومة ،
الرجل الذي يتصل بي
على شاكلتي يتحول ·
الفارس في ذعر وخوف
لم ينطق ولو بحرف
عند مدخل باريس
كانت الصبية تبتسم ·
— من ماذا تضحكين ، يا سيدتي ؟
من ماذا تضحكين ، يا حياتي ؟
— أضحك على الفارس
ومن جبنه الشديد ،

معه في الفلاة صبية ،
ولا يتذوق الا التبجيل والتحية !
من فم الفارس تسللت
بخجل هذه الكلمات :
— ارجعي ، ارجعي ، يا سيدتي
عندى لك شيء نسيت قوله ·
ردت الصبية بحصافة
وروية : لا ، لن أعود ،
وليس في وسع مخلوق ، حتي لو رجعت ،
أن يمس جسدى بسوء ؛
أنا ابنة ملك فرنسا
والملكة قسطنطينية
من تحدثه نفسه بايذائي
يتكبد النفيس الغالى ·

رومانث الكونت أرنالدوس :

من له مثل هذا الحظ
فوق ميـــاه البحار ،
كما كان للكونت أرنالدوس
صبيحة سان خوان !
كان والصقر بيمينه
الى الصيد ذاهبا ليصيد ،
عندما رأى سفينة قادمة من بعيد
الى الشاطيء تريد الوصول :
الأشرعة من حرير ،
الأمراس من كتان مفتول ،
البحار الذى يقودها
يشـــدو بغنـــاء جميـــل
البحر لسماعه هدأ واستراح ،
وأقلعت الرياح عن الصفير ،

الأسماك التي تجوب الأعماق
تتهادى فوق صفحة الماء ،
الطيور السابحة في الفضاء
على الصارى تحط وتتمايل ،
عندئذ نادى الكونت أرنالدوس
استمعوا جيدا لما يقول :

— بالله أتوسل اليك ، يا بحار ،
أن تعيد على سمعى هذا الغناء ·
رد عليـــه البحـــار
بهذه الاجابة وقال :

— أنا لا أشدو بهذه الألحان
الا لمن يبحر معى ويكون ·

رومانث دون بويو :

يمضى دون بويو ،
صبيحة يـــوم بارد ،
الى أراضى كامبـــوس
للبحث عن الصبية ·
وجـــدها تغسـل
فى نبع شديد البرودة ·
ماذا تفعلين هنا ، يا عربية ،
يا ابنة اليهـــودية ؟
آفســـحى لجـــوادى
ليرتوى من المياه الفضية ·

— لينفجر الجواد
ومن يمتطيـــه
فلســـت بعربيـــة
ولا بنتا ليهودية ·
بل اننى مســـيحية
أســـيرة هنــــا

أغســـل المـــلابس
فى بلاد المســلمين ٠

ـ لو كنت مسيحية كما تدعين
فسأحملك الى حيث تشائين ،
وفى أثواب من الحرير
ألفــك وأطــير ،
لكن لو كنت عربيــة
فسأتركك حيث تقبعين ٠
عــلى الجواد حملهــا
ليســـــمع قولهـــا ،
خــلال سبعة فراســخ
بكلمة لم تتفوه الصبية ٠
عند المرور بحقول
الزيتون الخضراء ،
فى تلك المروج ،
كم تعــالى النحيب !

ـ يا لك من مروج ! يا لك من مروج !
آه منك يا مروج حياتى !
عندما غرس والدى الملك
هنا هذه الزيتونة ،
كان هــو يزرعها ،
وأنا كنت أرعاها ،
الملكة والدتى
كانت تفتل الحرير ،
أخى دون بويو
كان بمصارعة الثيران شغوفا ! ٠٠

ـ ما اسمك ، يا صبية ؟

ـ روساليندا ،

اختاروا لى هـذا الاسم
لأنى عنـدما ولدت
وردة جميلة
كانت على صدرى شامة ٠

— أنت اذن ، وبهذه الأوصاف ،
أختى الشقيقة !
افتحى ، يا أماه ،
أبـواب السرور ،
أزف اليك بشرى ،
أحمل لك ابنتك !

— لكى تكون أختك ،
ما أشـد شـحوبها !

أمى ، أماه ،
يا أمى العزيزة ،
ما تقولين فى سبع سنوات
لم أتذوق فيهـا ،
الا أعشـابا مريرة
تنبت فى عين باردة ،
تغنى فيها الحيات ،
وتشرب منهـا الحيـات ،
وتشرب منها الجياد ٠٠
أدخلتهـا غـرفة ،
أجلستها عـلى كرسى ٠
سـترتى القرمزية
تنـورتى الأثيرة ،
تركتك جـديدة
فما بالك ممزقة !
— اسكتى ، يابنتى ، اسكتى ،
يابنة عمرى ،
من حاك لك هـذه

يحيك لك أخرى ٠

— ستــرتى القرمزية

تنــورتى الأثــيرة ،

تركتك جــديدة

فما بالك ممزقة !

— اسكتى ، يابنتى ، اسكتى ،

يابنة عمرى ،

هنالك أم

تصنع لك أخرى ٠

مضى دون بويو ،

قاصــدا الرحيــل

الى أرض المسلمين

للبحث عن الصبية ٠

الرومانث الذى كتبه عاشق فى الثناء على حبيبته :

من القمر أضج بالشكوى

ومن الشمس حزن عميق

لا هم لهما ولا شاغل

سوى تبديد راحتى والسرور

ملعون ذلك الحظ

الذى يعاملنى بهذا الشكل !

لا يتم على نعمة أبدا

ولا يوجعنى بشر دون هم ،

مائة ألف سنة شقاء ٠

كنت أهوى سيدة

فى مقابل ساعة من متعة

ليس لها فى العالم شبيه

الملامح التى تتمتع بها

على مسامعكم أود تعدادها :

وجهها وردة يانعة
على شجرة ورد ،
الحاجبان بقوس وضما
لون الاستبرق الرقيق ،
عيناها الزرقاوان
تبدوان لباشق همام ،
الأنف مرهف دقيق
كأنه من معدن مصنوع ،
على فمها شفتان
من لؤلؤ ومرجان ،
أسنانها شديدة اللمعان ،
صغيرة مثل حبات الملح ،
من على نحرها الجميل
يمتد عنق طويل ،
من لها مثل هذا الصدر
تسحر برؤياه العين ،
ومتأملا جسدها
تتراءى غرة النهار ٠

رومانث ابن الأحمر :

— ابن الأحمر ، يابن الأحمر ،
عربي من بلاد العرب ،
كان يوم مولدك
فيه آيات عجب ! ٠
كان البحر ساكنا ،
القمر بدر مكتمل :
عربي يولد بهذه العلامات
لا يكذب ولا ينطق بافتراءات ٠
حينئذ أجاب العربي ،
استمعوا جيدا لما قاله :

— لن أكذب عليك ، يا سيدى ،
ولو كلفنى الصدق حياتى ،
لأننى ابن العربى
ولمسيحية أسـيرة ،
عنـدما كنت صبيا ،
علمتنى أمى هذه الفضيلة :
ألا أقول كذبا قط
لما فيه من سفالة ورذيلة !
ومن ثم ، اسأل ، أيها الملك ،
فلن أخبرك بغير الحق ·

أشكرك ، يابن الاحمر
على مجاملتك ولطفك ·
ما تلك القـلاع ؟
المتلألئة ، عظيمة الارتفاع !

— انها الحمراء ، يا سيدى ،
الى جوارها المسجد الكبير ،
« اليخارس » الأخريات ،
بديعة النقش والتصوير ·
العربى الذى زينهـا
كان يومه بمائة جنيه ذهب ،
واليوم الذى يكف فيه عن العمل
يخسر من النضـار مثلها ·
وتلك جنـة العريف
بستان ليس له شبيه :
أما الأبراج الشقراء
فقلعة عظيمة القيمة والبهاء ·
وهنا تكلم الملك دون خوان
لا يفوتكم ما قاله من كلام :

ـ ان أحببت ، يا غرناطة ،
أن تزفي الى عروس معجبة ،
أعطيك مهرا وصداقا
اشبيلية وقرطبة .
ـ متزوجة أنا ، دون خوان
متزوجة أنا ، ولست بأزمل
والعربي الذي يملكني ،
يتفاني في حبي الأمثل .

رومانث زيد :

اسمع ، يا زيد ، اني أحذرك
من المرور بشارعي ،
لا تخاطب وصيفاتي ،
لا تعامل مماليكي ،
لا تسأل عن حالي ،
ولا عن من يأتي لداري ،
ولا عن الأعياد التي تسرني ،
ولا الألوان التي تروقني .
يكفيني ما ظهر منها بسببك
هنا على هذا الوجه
آسفة لأني أحببت
عربيا لا يعرف الحب
أعترف بأنك شجاع ،
تجرح ، تمزق وتشق ،
وأنك قتلت مسيحيين أكثر
مما في لحيتك من شعر ،
أنك خيال رشيق القد ،
ترقص ، تغني وتعزف ،
رجل شهم ، حسن التربية ،
فوق ما يتخيله العقل

آبيض ، أشقر الوجه ،
شريف الأرومة والأصل ،
زعيم الاعتداد بالنفس ،
سنام الملاحة والظرف ،
اننى أخسر كثيرا بفقدك ،
واغنم كثيرا لو بك حظيت ،
ولو انك ولدت أخرس
لكنت بالعبادة اليك توجهت ،
لكنى لهـذا العيب
على فراقك أمرى حزمت ،
لسانك السفيه الزالف ،
يمرر ما تجمع فيك من محاسن ،
ولذا يحتاج ان يضع لك
من يريد الاحتفاظ بك ،
عـلى الصدر حصنا
وعلى الشفتين سجانا ٠
ما يمكن للعشاق فى نواحيك عمله
زائد عن الحد مع السيدات !
فهم يفضلونهن متحمسات
للصبر وتحمل الاهانات ،
وعلى هذا ، يا صديقى زيد ،
لو اعددت لهن وليمة ،
من على مائدة فضائلك
تريد أن يأكلن صامتات ٠
كلفنى غاليا ما بى صنعت !
كنت ستبقى محظوظا ، يا زيد ،
لو الى صيانتى اهتديت
كما عرفت من قبل آن تضطرنى !
لكن ما كدت تخرج
من حدائق « طرفة » ،

حتى تباهيت
بحسن حظلك ونكبتى
ولعـربى زنيم
أخبرونى باطلاعك له
على جديلة من ضفائرى
فى العمامة وضعتها بيدى .
لا أطلب منك ردها ،
ولا الاحتفاظ بها .
لكنى أود أن تتذكر ، أيها العربى ،
احضارها يوم مأتمى .
أخبرنى أيضا شهود عيان
كيف تحديتـه للنزال
لأوهام ادعى أنها حقائق
أبدا لم تكن حقائق !
رغما عنى أضحك ،
وشر البلية ما يضحك !
أنت لا تؤتمن على سرك ،
وتريد من آخر أن يحفظه لك ؟
لا أريد قبول الاعتذار ،
مرة أخرى أعود وأخطرك :
سيكون هذا آخر لقاء
ترانى فيه وأكلمك .
هذا ما قالته العربية الرصينة
للمتغطرس ابن سراج ،
وعند انصرافها أضافت بحدة :
— من يزرع الشوك ، يجن الجراح .

رومانث الملك العربى الذى خسر « ألحامة » :

كان الملك العــربى
يتجول فى مدينة غرناطة
من بوابة « ألبيرا »
حتى باب الرملة ٠
– ويلى عليك يا ألحامة !
جاءته رســائل
بسـقوط ألحامة :
قذف الرسائل فى النار
وأمر بقتــل الرسـول ٠
– ويلى عليك يا ألحامة !
ترجل من على بغلة ،
وامتطى صهوة جواد ،
وعبر سوق السقاطين
صعد لقصبة الحمراء ٠
– ويلى عليك يا ألحامة !
وما أن وصل الى الحمراء
أمر دون ابطــاء
بقــرع الطبـــول
والنفخ فى فضى النوافير ٠
– ويلى عليك يا ألحامة !
دقت طبــول الحــرب
تعالت قرقعة السلاح ،
لكى يسمعها الجميع ،
من يسكن الغوطة ، أو بغرناطة يقيم ٠
– ويلى عليك يا ألحامة !
المسلمون الذين سمعوا الصوت ،

توافدوا آزواجا وفرادى
متجمعين فى حشـد غفير •
— ويلى عليك يا ألحامة !
قام شيخ عجـوز ،
سأل بصوت وقور :

— لماذا جمعتنا ، أيها الملك ،
ولماذا كان هذا النداء ؟
— ويلى عليك يا ألحامة !
لكى تعلموا ، يا أصدقاء
بالحادثة النكراء :

آن مسيحيين ذوى بأس
انتزعوا منا ألحامة •
— ويلى عليك يا ألحامة !
عندها تحدث فقيه
ذو لحية طويلة بيضاء :
— هذا ما غرسته ، أيها الملك !
ايها الملك ، وما غرسته تجنيه !
— ويلى عليك يا ألحامة !
عندما قتلت بنى سراج
وكانوا زهرة غرناطة النضيرة ،
واصطفيت المتقلبين
من أهل قرطبة الشهيرة •
— ويلى عليك يا ألحامة !
لهذا تستحق الآن
ضعف أضعاف أحزانك ،
تستحق ضياع ملكك
وفقدان غرناطة الأثيرة •
— ويلى عليك يا ألحامة !

رومانث دونيا أوراكا :

من آخر البهو تأتى
مغاضبة دونيا أوراكا ،
كلمات يلوكها فمها
ينشطر لها قلبى :
– لتقض نحبك ، يا ابى ،
ولينتزع سان ميجيل روحك ،
لأنك وزعت أملاكك
تبعا لأهوائك وميولك ،
لدون سانشو أعطيت قشتالة ،
قشتالة الدرة الثمينة ٠
لدون ألونسو « ليون » ،
ولدون جارثيا « بيثكايا » ،
ولى ، لأنى امرأة ،
لم تترك من الميراث شيئا ٠
فى بلاد غريبة سأهيم على وجهى
لتنس اسمى ورسمى ،
ولكل من يشتهى جسدى
لن أصده ولن أتمنع ٠
– اصمتى ، يابنتى ، اصمتى ،
لا تنطقى بهذه الكلمات الأثيمة ،
هناك فى قشتالة القديمة
بقية قد نسيتها :
« زامورا » وهذا اسمها ،
« زامورا » المحصنة المنيعة ٠
من يسلبك اياها ، يابنتى ،
يستحق غضبى وتحل لعنتى ٠
الكل آمن على كلامه ،
ما عدا دون سانشو ظل صامتا ٠

★★★

أهم المراجع والمصادر

١ ـ المصادر الاسبانية :

— Angel Valbuena Prat : Historia de la literatura espanola. Gustavo Gili, Barcelona, 1974.

— José Garcia Lopez : Historia de la literatura espanola. Vicens-Vives, Barcelona, 1966 15-a edicion).

— Jesus Arribas y Galo Yagüe : Lengua espanola y literatura. Didascalia, Madrid - Barcelona, 1976.

— Damaso Alonso : De las siglas escuras al de Oro. Gredas, Madrid, 1971.

— Ramon M. Pidal : Los godas y la epopeya espanola.. Espase - Calpe (Colec. Austral), Madrid, 1956.

— Antonio Quilis : Métrica espanola. Alcala, Madrid, 1969.

— Joaquin Artiles : Los recursos literarios de Berceo. Gredos, Madrid, 1968.

— Pedro Salinas : Jorge Manrique o tradicion y originalidad. Sudamericana, Buenos Aires, 1970.

— Cantar de Mio Cid (prologo y notas de Luis Guarner). Biblioteca Edaf-bolsillo, Madrid, 1970.

— Arcipreste de Hita : Libro de buen amor. Espasel-Calpe (Colec. Austral), Madrid, 1980 (16-a edicion).

— Jorge Manrique : Obra Completa, (dirigida y prologada por Augusto Cortina)'. Espasa - Calpe (Caleo. Austral), Madrid, 1979 (13-a edicion).

— Los mejores romances de la lengua Castellana, (Compliados par Isidro Gabriel).' Compania General Fabril Editora, Buenos Aires, 1961.

— El Marqués de Santillana : Obras. (Edicion de Augusto Cortina)', Espasa - Calpe, Madrid, 1996 (5-a edicion).

٢ ـ المصادر العربية :

ـ د • الطاهر أحمد مكي : « ملحمة السيد » (دراسة مقارنة) • دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ ط ٢ •

ـ د الطاهر • أحمد مكي : « دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة» • مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ط٢ •

ـ د • الطاهر أحمد مكي : « دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة» • دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ •

ـ د • الطاهر أحمد مكي : «مع شعراء الأندلس والمتنبي» • دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ط ٢ •

ـ «أثر العرب والاسلام في النهضة الأوربية » (الفصل الأول ، اعداد الدكتورة سهير القلماوى ، د • محمود على مكى) • الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧ •

ـ د • صلاح فضل : « من الرومانث الأسباني » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (المكتبة الثقافية) ، القاهرة ، ١٩٧٤ •

اقرأ فى هــذه الســلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند راسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى • رادونسكايا
نقطـة مقـابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغرافيـا فى مائة عام	ت • و • فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر • ج • فوربس
الأرض الغـامضة	ليسـترديل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر الن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د• قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولـكف
الهوية القومية فى السينما العـربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيـد وليـام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عـزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د• محسن جاسم الموسـوى
ديـلان توماس	اشراف س • بى • كوكس
الانسـان ذلك الكائن الفـريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	جـول ويست
المسرح المصرى المعـاصر	د• عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	انـور المعـداوى
القـوة النفسـية للاهـرام	بيـل شـول وادبنيت
فن الترجمـة	د صـفاء خلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتـور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع ادنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د٠ نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د٠ فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للاطفال	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د٠ غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٣ ج)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين

صور افريقية	دوركاس ماكلنيتوك
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	وليام بيفنز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر . بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	ارنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د. صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م.هـ. كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د. السيد طه ابو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا . هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى ارمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل آلبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الاوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرابس جونير.
عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د. فيليب عطية

نظريات الفيلم الكبرى	ج. دادلى انـدرو
مختارات من الأدب القصصى	جـوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد	د. جوهان دورشنر
حـرب الفضـاء	طائفـة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د. السـيد عليـوة
الميـكروكمبيـوتر	د. مصـطفى عنـانى
مختارات من الأدب اليابانى	صـبرى الفضـل
الفكر الأوربى الحديث ٤ ج	فرانكلين ل . باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جـابريل بايـر
اعلام الفلسفة السياسية المعـاصرة	انطـونى دى كرسـبنى
كتـابة السـيناريو للسـينما	دوايت سـوين
الزمن وقياسـه	زافيلسـكى ف . س
اجهـزة تكييف الهـواء	ابراهيم القرضـاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتـر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جـوزيف داهموس
التجـربة اليـونانيه	س . م بـورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د. عاصم محمـد رزق
العـلم والطـلاب والمـدارس	رونالد د. سمبسـون ونورمان د . اندرسون
الشارع المصرى والفـكر	د. أنور عبـد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روسـتو
تبسيط الكيميـاء	فـريد س هيس
العـادات والتقاليد المصرية	جـون بوركهـارت
التـذوق السـينمائى	آلان كاسـبيار
التخطيط السياحى	سـامى عبـد المعطى
البـذور الكونيـة	فـريد هـويل شـاندرا ويكـراما ماسـينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسـين حلمى المهندس
الهيـروين والايدز	روى روبرتسـون
نجيب محفـوظ على الشـاشة	هاشـم النحـاس

السينما العربية	اعداد / مونى براح وآخرون
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيحموت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ جـ)	ستيفن اوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى اوربا	بول كولنر
صناع الخلود	موريس بيير برابر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ جـ)	الفريد ج · بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ جـ)	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار/ د· رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السلطة والفرد	برتراند راسل
الأزهر فى الف عام	بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالى لويس
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ جـ)	احمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو توه
حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتار	د· ابرار كريم الله
ساستريخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ جـ)	هـ · ج · ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٣ جـ)	ريتشارد ف · بيرتون
الحضارة الاسلامية	ادمز متز
الطفل (٢ جـ)	ارنولد جزل

افريقيا الطريق الآخر — بادى اونيمود
السحر والعلم والدين — فيليب عطية
الكون ذلك المجهول — جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج — محمد زينهم
حرب المستقبل — مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية — سونداري
الاعلام التطبيقي — فرانسيس ج · برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية — ج · كارفيل
فن المايم والبانتومايم — توماس ليبهارت
تحول السلطة (٢ ج) — الفين توفلر
التفكير المتجدد — ادوارد ديبونو
السيناريو في السينما الفرنسية — كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام — جوزيف · م · بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكي — بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج) — جورج ستاينر
ما هي الجيولوجيا — ريليام هـ · ماثيوز
الحمر والبيض والسود — جارى ب · ناش
انواع الفيلم الاميركى — ستالين جين · سولومون
رحلة الأمير رودلف ٢ ج — عبد الرحمن الشيخ
رحلات ماركوبولو ٣ ج — عبد العزيز جاويد
الفيلم التسجيلي — محمود سامى عطا الله
الرومانتيكية والواقعية — يانكو لافرين
نظرية التصوير — ليوناردو دافنشى
تاريخ العلم والحضارة في الصين — جوزيف نيدهام
الحب — د· ليوبوسكاليا
كنوز الفراعنة — س· ج· هـ· جيمز
اطلالات على الزمن الآتي — د· السيد نصر الدين
الرواية اليوم — مالكولم براد برى
مشكلات القرن الحادى والعشرين — يوسف شرارة

نظرية الأدب المعاصر	ديفيد بشنبدر
مجمل تاريخ الأدب الانجليزى	ايفور ايفانس
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا	د . نورمان كلارك
تاريخ اوربا فى العصور الوسطى	هنرى بيرين
المرأة الفرعونية	كريستيان ديروش نوبلكور
التربية عن طريق الفن	هيربرت ريد
معجم التكنولوجيا الحيوية	وليام بينز
البرمجة بلغة السى	روبرت لافور
البرنامج النووى الاسرائيلى	د. ممدوح حامد عطية
الكيمياء فى خدمة الانسان	رولاند جاكسون
بحثا عن عالم افضل	كارل بوبر
العلم وآفاق المستقبل	اسحق عظيموف
كوننا المتمدد	ايفرى شاتزمان
التاريخ وكيف يفسرونه (ج ٢)	آلبان . ج . ويدجرى
محمد واليهود	د. بركات أحمد

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/١٣٣٩٦

ISBN — 977 — 01 — 5028 — 2

يحتل الأدب الإسباني قديمه وحديثه مكانة بارزة بين الآداب العالمية وهو أقرب الآداب الغربية إلى ثقافة روحاً ومضمونة وقد نشأ وترعرع في حضن الحضارة الإسلامية عندما كانت الأندلس منارة للعلم والمعرفة ووسط دياجير العصور الوسطى. ورغم ذلك فهو شبه مجهول للقارئ العربي خاصاً ما اتصل بعصوره القديمة ويمثل هذا الكتاب محاولة جادة للتعرف على هذا الأدب من خلال مجموعة من المختارات الشعرية التي تمثل كافة اتجاهات خلال العصور الوسطى الأسبانية مسبوقة بمقدمات خاصة تمهد للأجواء التي كتبت في إطارها حتى لا تكون كالجزر المنعزلة وسوف تتلو هذا الجزء أجزاء أخرى تتعرض للمراحل التاريخية الأخرى.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب